اللغة والهوية

(ثنائي المقدس الكردي)

يوسف يوسف

أكاديمية التوعية وتأهيل الكوادر
السليمانية ـ ٢٠١٣

أكاديمية التوعية وتأهيل الكوادر

مؤسسة ثقافية تأسست بموجب قرار صادر عن المؤتمر الثالث للإتحاد الوطني الكردستاني في العام (٢٠١٠) من مهامها توفير مستلزمات التوعية السياسية ، وتوسيع أطر الثقافة العامة، وتعزيز قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان والعدالة الإجتماعية في المجتمع، ودراسة قضايا الفكر المعاصر وتهيئة المواد الضرورية لتأهيل الكوادر في مختلف المجالات.

الكتاب: اللغة والهوية

المؤلف: يوسف يوسف

التصميم الداخلي: اميرة عمر

الغلاف: كمال

رقم الإيداع: () لسنة ٢٠١٣ المديرية العامة للمكتبات العامة

عدد النسخ: (١٠٠٠) نسخة

التسلسل: ( )

من منشورات اكاديمية التوعية وتأهيل الكوادر

المشرف على سلسلة الكتب

عثمان حمەرشید گورون

www.pukhoshiari.com

info@pukhoshiari.com

إهداء

إلى إسماعيل سرحان
بمناسبة ذلك اللقاء قبل ما يزيد على ربع قرن
ما الذي كان فيك من إخوتنا الهنود الحمر
فرأيت فيك الدالة إلى الكرد
ولم نكن قد التقينا سابقا ..

يوسف يوسف

مدخل

الكلمة هي قائد القوة البشرية
أنا أعرف قوة الكلمات
أنا أعرف ناقوس الكلمات
إنها ليست تلك التي تصفق لها
المقصورات
بفعل تلك الكلمات تندفع التوابيت
لتمشي على أرجلها الخشبية الأربع

مایاکوفسکي

لمــاذا اللغــة والهويــة وحــدهما ولــيس ســواهما نتناولهما في هذا الكتاب ؟ فإذا كان السبب يرتبط بالأهمية، أليست هناك عناصر أخرى مما تتكون منها حياة الانسان، فردا كان أو جماعة، لها كمثل ما لهذين العنصرين من الأهمية في حياة ووجود أي شعب، وبضمن ذلك الشعب الكردي.

وقبل توضيح الأمر وتقديم الاجابة، لا شك بأنه هناك ثمة أسئلة أخرى كثيرة، يمكن أن تراود ذهن كل من الباحث والقارئ كليهما على حدّ سواء، ليس حول دواعي هذا الاختيار وأسبابه فقط، وإنما حول الكرد أنفسهم كشعب نتناول لغته وهويته في هذا الكتاب، وإن كان من حق الكاتب أيا كان، اختيار الموضوعة التي يريدها، والثيمات التي يرى أنها أجدر من غيرها بتقديم جهده، الذي يظل شخصيا ولا يمكن لأحد التدخل فيه.

وابتداء فإن لكل أمة من الأمم لغتها، وما يوجد في هذا العالم من اللغات يربو على الستة آلاف لغة بحسب تقارير اليونسكو، وإن كنا ندرك بأنها ليست جميعها في درجة واحدة من الأهمية والانتشار، وأن من بينها لغات قد تكون مهددة بالزوال والانقراض

كما زالت وانقرضت في الماضي لغات، لأسباب مختلفة ليس هذا ميدان البحث فيها، وهذه في الغالب لغات ليس لها تراث عميق، كان من اليسير دفعها للتراجع، وتمهيد الطريق أمام لغات أخرى، هي لغات المحتلين لكي تفرض هيمنتها وتبسط نفوذها في بلدان تلك اللغات، تماما مثلما حدث في بلدان بعينها في قارة إفريقيا والهند. واللغة على وفق ما يذهب إليه علماؤها، أحد الأوجه القومية لأية أمة، وذلك لأسباب يأتي في مقدمتها قيامها بحمل عدد من الخصائص البنيوية والاجتماعية الوحدوية المرتبطة بالأمة الناطقة بها. وقد قال فيها ابن سنان الخفاجي في كتابه (سرّ الفصاحة) : اللغة هي ما يتواضع القوم عليه من الكلام [١]. ولأن أمرها على هذا النحو من النشأة – التواضع والتوافق عليها بين أصحابها، فقد أصبح من الواضح أن لها منزلتها الاجتماعية الكبيرة، في حياة الناس الذين وصلوا إلى هذا التواضع، الذي هو عينه ما نسميه التوافق الجمعي، أوهي كما يقول ابن جني : أما حدّ اللغة فهي أصوات يعبّر فيها كل قوم عن أغراضهم [٢].

ولربما بسبب هذه المنزلة التي وصلت اللغة إليها في حياة الشعوب، أصبح من اليسير معرفة

أسباب الحروب الاستئصالية التي يشنها المستعمرون عادة على لغات البلدان التي يرسمون الخطط لاستعمارها، بصرف النظر عن ألسنتهم وجنسياتهم وألوان عيونهم. ومن الضروري التنبيه هنا إلى أن اللغات عموما وإن بدرجات متفاوتة، لا يمكن أن تبقى في جمود، وإنما هي في أغلبها كمثل الكائنات الحية، تتغذى وتتنفس وتنمو وإن بأشكال وطرق لا تماثل ما تراه العين في المخلوق البشري من النمو. أما كيف ستجد هذه المقاربة أبعادها، فذلك لأن اللغة وعاء إجتماعي وحضاري، عليه استيعاب الحراك الاجتماعي في مختلف تموضعاته وأشكاله والمراحل التي يمر بها. هنا قد لا تقنع هذه المقاربة بعض القراء، ولكن مما يبين كيفية النمو التي نقصدها، وعدم بقاء اللغة في ذات الحيز التعبيري الذي أمضت فيه سنوات طويلة متعاقبة، ما أضافته صحيفة الغارديان البريطانية على سبيل التوضيح إلى اللغة الانجليزية التي تصدر بها، خلال مسيرتها الطويلة، بحيث أصبح في مقدور علماء اللغة التحدث عن قاموس يحمل اسم (قاموس الغارديان) الذي يتضمن مئات المفردات التي أضافتها هذه الصحيفة إلى اللغة الانجليزية. وقاموس الغارديان

عند النظر إليه باعتباره أحد الدوال، فإنه يؤكد بأن اللغة الانجليزية ليست جامدة، وأنها لغة تمشي ولا تبقى في مكانها بتاتا متقوقعة على ماضيها وما كانت قد آلت إليه قبل حصول الاضافة. ومن هنا لربما جاء القول بأن الإنجليزية واحدة من اللغات الحية التي لا تموت، ولعلها بسبب التطور الذي حلّ ويحلّ بها، أصبحت واحدة من اللغات الأربع التي تنتشر في العالم وتهيمن على ألسنة الملايين من سكانه. إنها تمشي متحركة في اتجاهات التعبير التي لم تكن قد ألفتها سابقا، وبما يجعلها دوما في حاجة إلى من يجب عليه إجراء التطوير فيها، خشية أن يصيبها الكساح، هذا المرض الذي أقعد لغات كثيرة في أمكنتها، فما عاد في مقدورها التطور والمشي، وحتى فإنها لو استخدمت عكازة رامبو، فإنها لن تستفيد وتقوم من رقادها.

بيد أن هذا أمر، والقول بأن اللغة تظل هي البوابة الأفضل لدراسة واقع وتاريخ أية أمة أمر آخر. ذلك لأن اللغة في الوقت الذي تعتبر فيه وعاء يحتضن مختلف الآمال والتطلعات التي حملتها هذه الأمة عبر تاريخها، تتأثر بكل الأحداث التي تمر بها الأمة الناطقة بها، ولا تكاد هذه الأحداث تمر بدون

أن تترك بصماتها عليها، سواء في ابتكار لفظ كما سنرى لاحقا، أو بتوليد معنى ما. ومثل ذلك أيضا، فإنها التي تتحدد من خلالها ملامح المجتمع الذي يتكلم بها، وعن طريقها نتبين اختلافاته وتمايزاته عن غيره من المجتمعات. هنا لا يغيب عن الأذهان وجوب اعتبار اللغة المرآة التي تنعكس فوقها جوانب واسعة من حياة البشر، لأنها وهذا جانب مهم من حقيقتها، هي من في مقدورها احتضان أحلام الشعراء، وبيانات السياسيين وشعاراتهم ومختلف رومانسياتهم الثورية. إنها وفي عبارة أخرى، وعند البحث في محتويات الخطابات التي تكتب بها، اقتصادية كانت هذه الخطابات أم سياسية أم ثقافية أم غيرها، تعد المدخل الذي لا بدّ من ولوجنا منه إذا ما أردنا الكشف عن واقع أي شعب في مراحل حياته المتعاقبة. إن الأمة في تكوينها النفسي والوجداني والعقلي، هي صنيعة اللغة والثقافة المشتركة التي تسيرها هذه اللغة، والتي هي عدا عن كونها وعاء العلم والأدب والفن، نظام عقلاني منطقي يعمل على التدخل في البنية النفسية للفرد لحين دفعه للتواؤم مع الجماعة من الداخل [٣].

وبما يوضح الأمر أكثر، ويلقي أضواء أشد على أهمية اللغة ومنزلتها الاجتماعية، فإن (المتشائل) تعتبر واحدة من المفردات الجديدة، التي لم يكن لها أي وجود في اللغة العربية، قبل أن ينحتها إميل حبيبي ويقدمها في روايته ذائعة الصيت (الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل)، التي ظهرت في أعقاب حرب حزيران عام ١٩٦٧ التي تمخضت عن هزيمة كبيرة للعرب أمام الدولة اليهودية، تعدّ الأكبر في تاريخهم الحديث، بعد حرب عام ١٩٤٨، التي انتهت بقيام الدولة اليهودية في جزء من فلسطين آنذاك، فجاءت الهزيمة الثانية – حزيران سبعة وستين، لتكتمل عملية احتلال جميع الأراضي الفلسطينية. ومثلها أيضا مفردة (الأعدقاء) هي الأخرى، التي أضافها الكاتب محمد الرميحي إلى اللغة العربية. والملاحظة التي يمكن أن تقال هنا، إنما تتمثل في كيفية وقوع عملية الاشتقاق وآليتها. إذ سوف يلاحظ القارئ أن هاتين المفردتين من حيث الدلالة التي في كل واحدة منهما، مشتقتان من حالة ما من حالات النفس البشرية، ومن النقيض القيمي ذي البعد السيكولوجي، في مصدري الاشتقاق اللذين ابتدات

منهما عملية النحت. فالمفردة الاولى التي هي المتشائل، تشكلت من الزحف المتبادل بين مفردتين متنافرتين في النسج والدلالة هما: المتشائم والمتفائل، إذ أخذ الروائي من الاولى نصفها الأول، ومن الثانية نصفها الثاني، فجاءت مفردة المتشائل التي ستضيف دلالة لم يكن لها وجود في العربية. فيما أخذت المفردة الثانية : الأعدقاء شكلها من التحام رسم الرميحي ملامحه بما اختاره من مفردتي الأعداء والأصدقاء اللتين تحمل كل منهما منحى سلوكيا وقيميا مخالفا وبحدة لما في المفردة الأخرى من الدلالة. ولن نجهد أنفسنا كثيرا في اكتشاف أن ما يشير إلى الحالة السلبية، يقع من حيث شكل النحت اللغوي والدلالي، قبل ما يشير إلى الحالة الأخرى الإيجابية، كمثل تقدم الجزء المأخوذ من مفردة المتشائم، على الجزء المأخوذ من مفردة المتفائل، وكذلك تقدم الجزء المأخوذ من مفردة الأعداء، على ذاك الجزء المأخوذ من مفردة الأصدقاء. وقطعا فإن مثل هذه القصدية في النحت، التي لم تأت اعتباطا وإنما لها غايتها. ولعله مما يجب أن لا يغيب عن الأذهان، أن الكاتبين، كل واحد منهما وعلى طريقته، وهما ينحتان المفردتين الجديدتين

ليضيفانهما إلى لغتهما العربية، إنما كانا يتخيلان صيغة للحياة التي يعاصرانها، فما هي صيغة هذه الحياة التي جعلت الأول الفلسطيني يتحدث عن شخص يقع بين حالتي التشاؤم والتفاؤل، ومثل ذلك أيضا : ما هي صيغة هذه الحياة التي جعلت الثاني الكويتي يتحدث عن أعدقاء، ليسوا هم أعداء تماما، ولا أصدقاء تماما، بعد أن وجد بلده الكويت قد احتلته قوات عربية يفترض بأنها تكون قوات صديقة تأتي لنصرته وليس لاحتلاله ؟

نحن وفي هذا الكتاب لسنا في مجال دراسة تاريخية نتناول فيها بدايات ظهور اللغة الكردية، وتطورها ولهجاتها وقواعدها وسوى ذلك مما يرتبط بالألسنية، وإنما يهمنا الوقوف أمام هذه اللغة من حيث هي فعل اجتماعي، تمخض عنه ظهور هوية مميزة، وشعب بقيت له ملامحه على رغم كل ما تعرض إليه من القهر والاستلاب ومحاولات الإقصاء والتغييب وربما السحق تماما، لكنه برهن في اعتقادنا على امتلاكه قدرة كبيرة، وطاقة هائلة على المطاولة والمحافظة على وجوده، في أرضه التاريخية كردستان[٤].

غالبا ما تحيل الدراسات اللغوية إلى شكل من الارتباط بين اللغة والواقع في مختلف مستوياته، التي تتحدد بها ملامح المجتمعات وخصوصياتها. وهي لهذا السبب أصبحت المرجعية الهامة والأساسية، التي يمكننا الاستدلال من خلالها إلى ما تشير إليه من النبض في الحياة البشرية. إن علم اللسانيات الاجتماعية على سبيل التقريب، ما كان له أن يظهر إلى الوجود، لولا وجود تلك العلاقة التي نشير إليها، بين اللغة والواقع الاجتماعي. وهذا العلم كما هو معروف، إنما يقوم على دراسة اللغة – أية لغة في إطارها الاجتماعي. لا نريد هنا الذهاب إلى ميدان دراسة ما يقوم به هذا العلم، فلهذا مجال آخر. وسوف تتعاظم أهمية هذه المرجعية بالقدر الذي تستطيع فيه تجاوز حدود البلاغة التقليدية، وتصبح من الأبجديات الممتلئة خطاباتها بمتون اجتماعية، وسوى ذلك من المتون، الاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية وغيرها، وبما يمهد الطريق للباحث كي يصفها بالفاعل الاجتماعي الممتاز.

وليس استطرادا القول كذلك، بأن مفردة المتشائل بقيت ولفترة لا نعرف طولها على وجه الدقة، مجرد صيغة مؤقتة، اقترحها علينا إميل حبيبي نحن الذين

نتكلم العربية، وإن استطاعت لاحقا تأكيد حضورها المعجمي والحياتي الواقعي كليهما معا، بما في هذا الواقع من أسباب للفرح ومثلها للحزن، أو في تعبير آخر، بما فيه من أسباب للتشاؤم ومثلها للتفاؤل. ومثل هذا حدث أيضا مع المفردة الأخرى : الأعدقاء. وكل هذا يفيد بأن المفردتين اكتسبتا بعد وقت، هويتهما التي تتوحدان فيها من حيث تعبيرهما عن الواقع العربي الذي صدرتا منه، في جانبيه السياسي والاجتماعي كليهما معا. وإذا كان هذا هو المرئي الذي نفكر به، فإن الابداع في استخدام اللغة – أداة الخطاب، هو الذي سعى للتعبير عن هذا جميعه، بلغة في مقدورها كما تشير واقعتا النحت اللغوي، النمو والتطور. ومن المهم الاشارة هنا، إلى أن نحتا في اللغة كمثل هذا النحت، الذي رأيناه في كل من المتشائل والأعدقاء، لا يعبّر فقط عن إدراك الكاتبين للغة التي يكتبان بها، وإنما هو كذلك يجسد الصورة التي جاءت الواحدة منهما لترسم أهم ملامحها. لهذا لم يكن مستغربا اعتبار بعض علماء الدلالة المعاصرين، الكلمات التي تنطلق من حناجرنا، وتلك التي نكتبها فوق الورق، علامات واضحة من شأنها إبراز علاقة الدال بالمدلول، ألتي

هي علاقتها بالواقع الاجتماعي، وأمثلة ما نتوخاه من هذا كله، نراها في مفردات كثيرة شاع استخدامها في الحياة أخيرا كمثل : العولمة والخصخصة والحداثة والتجديد.. إلخ، مما يؤكد ارتباط اللغة بالواقع وحتمية تأثرها به، وتأثيرها فيه.

إن مثل هذا النحت في اللغة، وكما يرى المهتمون بالألسنيات وعلم اللغة الاجتماعي، يعد نوعا من الممارسات النصية الأيديولوجية، على اعتبار أن الكاتبين كليهما في الوقت نفسه، انطلقا من رؤية أيديولوجية لما يدور حولهما، وأرادا تقديم ملخص له باستخدام مفردة بعينها، أصبحت لها دلالاتها الاشارية . إنه ممارسة نصية في مجال بنية اللغة، وهي كذلك ممارسة أيديولوجية بحكم المحمول الذي في المفردة – نتاج عملية النحت. وهكذا فإن بنية اللغة لها علاقة وطيدة بالبنية الأيديولوجية، ومثل ذلك بالبنية الاجتماعية كذلك.

باللغة تتميز الشعوب عن بعضها كما يرى ابن خلدون في مقدمته الشهيرة. وعنده أيضا فإن الأمم ليست جميعها متساوية في النطق، فقد يكون لأمة من الحروف ما ليس لأمة أخرى(٥). ويرى أيضا

بأن غلبة اللغة إنما تأتي من غلبة أهلها، وأن منزلتها بين اللغات إنما هي صورة لمنزلة دولتها بين الأمم.

وبصرف النظر عن مختلف ما تذهب إليه خطابات الأديان السماوية ذات الصبغة التوحيدية بخصوص لغة الانسان، التي تعدها من الهبات أو المنح التي خصّ خالق الكون الانسان بها من دون بقية مخلوقاته، فإنها لا مثيل لها عند بقية المخلوقات. ومثل ذلك وبصرف النظر كذلك عما تذهب إليه الخطابات الفلسفية، التي تعتبرها خاصية الانسان الوحيدة التي ترتفع به إلى درجة من الخلق يكون الإله عندها قد استنفد فيه باعتباره خالقه كل أغراض خلقه بحسب جون جوزيف في كتابه (اللغة والهوية)[٦]، فإن اللغة وبحسب ما يذهب إليه فرديناند دو سوسير تعدّ (حدثا إجتماعيا). أو إنها بحسب اللغوي والانثروبولوجي إدوارد سابير قوة كبيرة من القوى التي تقف وراء نشوء المجتمعات.

إن ما يسميها الفلاسفة طفولة وعي الانسان، تختلف حتما عما أصبح عليه وعيه اليوم. وبالتالي فإن ما كان يستخدمه من المفردات آنذاك، إنما جاءت مطابقة لواقعه ولمحدودية معرفته وضيق تجربته، على اعتبار أن الانسان من حيث هو كائن،

لا يستطيع أن يقول إلا ما يفكر به بحسب الفيلسوف الألماني جاك لينهارت، وذلك انطلاقا مما سبق توضيحه من النحت في اللغة الذي تمثل بمفردتي المتشائل والأعدقاء، قبل أن تكتسب كل واحدة منهما هويتها الدلالية، تحت تأثير ما يمكن أن نسميها القوة الكامنة في اللغة، والتي يمكن انفجارها في أية لحظة. هنا يخطر للذهن هذا المقطع الجميل من إحدى الأغاني الكاريلية.

(منطقة تقع في شمال غرب روسيا) :

فاينمونين العجوز
كان يصنع بالغناء قاربا
وهو يدق على صخرة
كانت تنقصه ثلاث كلمات
لكي يصنع جانبي القارب
فذهب في طلب الكلمات

هناك نظرتان إلى اللغة: فأما الاولى فإنها تلك التي تهتم بتاريخها والتطورات التي مرت بها وبفقهها وبمختلف تقنيات الأداء التي فيها، وأما

الثانيـة فإنهـا التـي تهـتم بعلاقتهـا بـالواقع الاجتمـاعي والتأثير المتبادل بينهما. ويقينا فإن اللغة وعلى وفق مـا يتصـورها روبـن دينبـار صـاحب كتـاب (التهنـدم وكلام الناس وتطور اللغة)، تخدم غايات الفرد الذي يبحث بحسب تعبيره عن تشكيل حلف ما مع آخرين من البشر. صحيح أن كثيرين يعتقدون بأن للطيور والحيوانات لغاتها التي تتفاهم أو تعقد الأحلاف فيما بينهـا بهـا، إلا أن التـي تـأتي علـى ألسنة البشـر مـن اللغات المتباينة، تختلف تماما عما يخرج من حناجر الطيور والحيوانات، وهذه لا رابط يجمعها بتلك، ثم إنهـا فـي شكل تمظهرهـا فـي الواقـع صـوتا وكتابـة، يتفـرد بهـا البشـر ويختلفـون بهـا عـن غيـرهم مـن المخلوقـات كمـا سـبق القـول، علـى رغـم وحدانيـة الخـالق، بـل وإنهـا عنـد الكثيـرين مـن الضـالعين فـي شؤون علم اللغة الاجتماعي، تعتبر حدا فاصلا بين حياتين تختلفان عن بعضهما من حيث رقـي الانسـان وتطوره. وعلى أساس هذا التصور، فإن اللغة وعلى وفـق توصـيف سوسـير لهـا، لا بـدّ أن تجسـد تلـك العلاقـات التـي يمكـن أن تـربط مسـتعمليها بعضـهم بـالبعض الآخـر. ولربمـا لهـذا السـبب بالـذات، جـاء القول علـى ألسنة ومفكري علم الاجتمـاع، بحضـور

الهوية في اللغة، على اعتبار أنها لا بد أن تتمظهر على شكل أنساق لغوية، تختلف بسبب الاختلافات بين الجماعات البشرية عن بعضها، فهذا نسق صيني، وذاك أندونيسي، وغيرهما هذا نسق إنجليزي، وهذا عربي وهذا كردي، وهكذا إلى سوى ذلك من الأنساق اللغوية والبشرية المتباينة والمتماثلة في آن واحدة[٧].

كان عملا عظيما حقا ذلك الذي قام به العجوز فاينمونين حينما ذهب في طلب الكلمات – اللغة في تفسير آخر، ففي البدء كان الكلمة. وهذه هي المادة الأساسية ليس في الأنسجة الأدبية وحدها، وإنما في أنسجة الحياة البشرية برمتها وفي مختلف تمظهراتها. إن الكلمة – المفردة من بين جميع عناصر التعبير التي يستخدمها الانسان (الرسم والنحت والرقص والتصوير والتمثيل..) هي أول ما يدخل الانسان بها في ميدان العمل : بابا وماما... وهي التي تمنحنا نحن فيما إذا ما كنا من الباحثين في حياة المجتمعات، أول العلامات التي تؤكد فرضية قيام هذا الانسان بفعل إجتماعي.

وإلى ما نتوخاه كذلك، فإنه وبالنسبة لأولئك العرب الذين لا يتقنون من اللغات سوى لغتهم

العربية على سبيل المثال، فإن الحديث عن أي شكل من العلاقة ومهما تضاءلت وكانت محدودة بينهم وبين إنجليز، لا يتقنون هم الآخرون في المقابل سوى لغتهم الانجليزية، ستبدو ضربا من العبث والعلاقة غير المجدية. وحتى لو افترضنا وجود من يتقن لغة الآخر من الطرفين، فإن الحديث بينهما سوف يبقى في حدود الحديث العابر،الذي سرعان ما سينتهي بانتهاء اللقاء، الذي إن طال فلن يتجاوز أياما معدودات.

إن اللغة التي نقصدها ونتناولها في هذه الدراسة، هي تلك التي يصبح في مقدورنا من خلالها اكتشاف تلك المميزات بين هذا الشعب وذاك، وهي إلى جانب هذا، تلك اللغة التي يمكننا أن نكتشف فيها إسهامها الكبير في تأسيس كل من : الأنا المصغرة - أنا الفرد، والأنا المكبرة - أنا المجموع البشري الذي تتكون الأمة منه، كليهما معا. إننا من أجل أن نفهم هذه اللغة، ينبغي علينا ابتداء أن ندرك بأن تاريخ الأشياء، إنما هو تاريخ مسميات في فلسفته الحقيقية، وهو بالتالي تاريخ أسماء كذلك (وعلمنا آدم الأسماء كلها). ومعنى هذا فإن اللغة تعتبر الحاضنة التي تنمو فيها الروابط الاجتماعية وتتطور، ولربما

كان هذا ما انتبه إليه ستالين حينما قال : لا يمكن تصور جماعة قومية بدون لغة مشتركة، لأن اللغة هي نتاج المجرى العام لتاريخ المجتمع وبنائه التحتي لعدة قرون. إنها جهود مئات الأجيال، نتاج سلسلة من العصور تتخذ خلالها شكلها، وتغتني وتتطور وتصقل[٨].

ولربّ قائل يرى بأننا كلنا من آدم الذي خلقه الله من تراب، وأنه لا ضرر بالتالي من تسيّد لغة على غيرها من اللغات التي يتحدث بها أبناء آدم، إلا أننا نقول بأن الله الذي أوجد الخليقة وأوجد آدم ونسله من بعده، هونفسه من علم آدم الأسماء كلها) ومن آياته اختلاف ألسنتكم وألوانكم). نحن بهذا المعنى نتحدث عن جسم له مواصفات وملامح وأبنية سياقية مكتوبة وصوتية تختلف من قوم إلى آخر. وهكذا بدون الاعتراف بأحقية نموذج لغوي في التسيّد على سواه من النماذج انطلاقا من الإيمان بالسنن الكونية التي منها (لكل وجهة هو موليها)، فإننا نذهب إلى ما كان قد ذهب إليه ابن خلدون في قوله : الكلام فعل لساني، ناشئ عن قصد بإفادة، ولا بدّ أن تصير هذه اللغة ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتها[٩].

والوجهة التي نقصدها إنما تتمثل بالهوية – اللغة، التي تنمو باتجاه التماثل ذاته الذي سبقت الاشارة إليه وعلى غرار قولنا : هذا صيني، وذاك إندونيسي... إلخ من القوميات ذات الهويات المتباينة والمختلفة عن بعضها، ولا نقول المتناحرة كما قال صموئيل هانتنغتون صاحب (صراع الحضارات).

عندما نقوم بذكر اسم شخص يدعى (محمود) على سبيل المثال، فمعنى ذلك قيامنا باستدعاء مفردة بعينها، لها في الواقع الحياتي وظيفة إشارية - الاشارة إلى شخص يحمل اسم محمود. والرجل الذي يحمل هذا الاسم، لا بدّ أن يتميز بها عن سواه من الرجال، فيلبي النداء عليه إذا كان في وسطهم، مثلما سوف يلبيه آخرون سواه عندما ننادي عليهم بأسمائهم، فهذا الرجل هو سامي، وذاك الرجل اسمه طوني، والثالث اسمه كابور، والرابع فرهاد، وغير ذلك من أسماء الرجال في لغات البشر المختلفة. إن هذه الأسماء جميعها لها وظائف إشارية هي الأخرى وكمثل ما للمفردة الاولى - محمود. يقول سقراط في محاورة كراتيلوس لأفلاطون : إن غاية الكلمات تتمثل بتمييز الأشياء بعضها عن بعض، وتلقين بعضنا بعضا هذه الأشياء، وتمييز الأشياء بعضها

عن بعض يقصد (برفع الياء وفتح الصاد) به التمثل. وأما تلقين أحدنا الآخر هذه الأشياء فيعني التواصل وتكريس العلاقة.

ما سبق وغيره الكثير يفيد بأن اللغة إنما هي نظام يقوم على فكرة التمثل. ولقد بات واضحا ومنذ زمن ليس بالقصير وبحسب ما يشير إليه جون جوزيف، بأن اللغة تعتبر الوعاء الحادي للثقافة، ووسيلة التفكير الذي يهدف إلى رؤية العالم والكشف عن نواميسه، لذلك عدّت المعرفة بها، أهم ركيزة للمحافظة على الهوية والذات كلتيهما معا عند تعرضهما لهجمات معادية[١٠]. وإنه من بين اولى العقبات وأخطرها عند السعي لتأسيس هوية قومية، تلك التي تتمثل في عدم وجود لغة قومية[١١]. وما دمنا ننطلق في هذه الدراسة من افتراض وجود لغة كردية لها كينونتها الوافية كما سيرى القارئ لاحقا، وليس عن لغة مصطنعة تبحث عمن يوقظها من رقادها، أو ينفخ فيها الروح إن لم تكن قد ظهرت فيها هذه الروح سابقا، فمن الضروري الاشارة إلى أن اللغة في واقع الحال بالنسبة لاؤلئك الذين يتكلمون بها، تعدّ العامل الأهم لبلورة العلاقات والتضامن الاجتماعي. والانسان بما في ذلك

الكردي، سوف يفقد بدون وجود اللغة القومية أهم مبررات وجوده، دون أن يغيب عن الأذهان، أن هذا الوجود يرتبط بوجود نسق لغوي متماسك، يصعب على الفرد مهما أوتي من القوة تغييره، وبالذات ما دام قد مضى على وجود هذا النسق زمن طويل، أو في كلمة أخرى، فإن اللغة لا بدّ أن تتأسس من خلال تاريخ ما كما قال ستالين، لهذا القوم أو ذاك من الأقوام البشرية، وعلى وفق سيرورة الحياة، التي جعل الرب فيها للانسان ألسنة ولغات، وليس على وفق قوانين الجناة والقتلة في التاريخ، ممن يريدون تسييد لغاتهم وأنفسهم على غيرهم من البشر، ممن يريدون منهم القبول بالعبودية والتبعية في الوقت نفسه، وبتقديس الجلاد كذلك.

يقول تروبتسكي في واحدة من أهم رسائله إلى رومان ياكوبسون : إنني أتفق تماما مع آرائك، بأنه هناك العديد من العناصر في تاريخ اللغة تبدو تصادفية، ولكن التاريخ لا يمتلك الحق بأن يقتنع بهذا التفسير، وعندما يعكف المرء على دراسة الخطوط العامة لتاريخ اللغة بشيء من الاهتمام والمنطق، فإنها لا تبدو تصادفية، وبالنتيجة فإن التفصيلات الصغيرة لا يمكن أن تكون تصادفية أيضا[١٢].

هكذا نتبين أهمية اللغة في حياة الانسان. وبالنظر إلى هذه الأهمية، فقد اخترناها للدراسة. وفي كتابه الشهير (التمنع، التجنب، التعرّف) يقول إدوارد سعيد في أزمة اللغة العربية : إن ما نعاني منه في الشرق ليس أزمة اللغة بقدر ما هو أزمة هوية اللغة، فنحن نتكلم لغة الآخرين. لغة الغربيين، ولم نعد نعرف من نحن[١٣]. بيد أنه يمكننا القول وبوضوح، بأن الكرد لم يعانوا من مثل هذه الأزمة، بدلالة أن الاحساس بقي يلازمهم طوال تاريخهم الطويل، بأنهم إنما يجب عليهم الحديث بلغتهم وليس بلغات الآخرين الذين يحتلون أرضهم، وذلك بهدف المحافظة على وجودهم، وقد كانوا في هذا الاحساس إنما يشيرون إلى أن الأزمة فيما لو قيض لها الظهور، فإنما إذا ما حدث وتخلوا عن لغتهم الأم، التي بقيت عامل توحيد لهم. وعلينا جميعنا ما دامت الحال على هذا النحو طرح السؤال التالي : ما هي الآثار الاجتماعية والسيكولوجية للغة الكردية على الشعب الذي بقي يتكلم بها مئات السنين ؟ إن من أهم ما نلاحظه قبل تقديم الاجابة الوافية، أن البلدان التي خضعت للاستعمار القديم، انسحبت لغاتها المحلية الوطنية من الميدان لصالح لغات القاهرين بالقوة،

كالانجليزيــة والفرنسـية والاسـبانية[١٤]، وأصـبحت مجرد لغات مستكينة، ينحصر وجودها في المحكي من الكلام حسب. إلا أن أمرا كمثل هذا لم يحدث مع الكرد، على الرغم من أن ما تعرضوا إليه من محاولات طمس الهوية، لا يقل حدة عما تعرضت إليه بلدان في أمريكا الجنوبية وإفريقيا وسواهما من القارات. ولعل الكرد يدركون كما ندرك ذلك أيضا، بأنه عليهم بدل البحث عن أنفسهم في الغرب أو في سواه بلا فائدة حقيقية ترجى، أن يبحثوا عن الثروة التي في لغتهم، فإنها التي بقيت جدارهم المنيع الذي يحتمـون وراءه إو فـي داخلـه، لـئلا يـتمكن مـنهم خصومهم على مدار التاريخ. وإنه الحق عينه ذلك الذي قيل : اللغة ذات التراث العميق لا يفت في عضدها استعمار أو احتلال كالعربية وبعض اللغات "الاسلامية" كالفارسية والبشتو[١٥].

يتوزع هذا الكتاب بالاضافة إلى هذا المدخل بين ثلاثة مباحث وخاتمة. فأما المبحث الأول فيحمل عنوان: اللغة والواقع الاجتماعي، وفيه نتناول العلاقة من حيث التأثير المتبادل بين اللغة والواقع الذي ترتبط به من حيث إطارهما العام. فيما يحمل المبحث الثاني عنوان : اللغة والهوية.. المقدس

الكردي، وفيه نبين كيفية تشبث الكرد بمقدسهم الذي يعدّ جدار دفاعهم القوي عن وجودهم كما سبقت الاشارة. وأما المبحث الثالث الذي يحمل عنوان : الكرد – جدل المقاومة، فإننا نتوقف فيه أمام أساليب الكرد في الدفاع عن لسانهم الذي فيه سرّ شخصيتهم، وأساس قوميتهم وهويتهم الجامعة. ويأتي في أعقاب هذه المباحث، خاتمة نقدم فيها تقديرنا النهائي الذي سيكون أقرب إلى الاستقراء المستقبلي منه إلى تفسير الظاهر من حياة الكرد.

الهوامش

=====

(١) ابـن سـنان الخفـاجي، سـرّ الفصـاحة، تحقيـق عبدالمتعال الصعيدي،
القاهرة ١٩٣٥، ص١٢.

(٢) كتاب الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية،
القـاهرة، الطبعـة الرابعـة، وانظـر ط٢ : دار الهـلال، بيروت ص٧٣.

(٣) قاسـم العتمـة، اللغـة العربيـة كـأداة توحيـد، مجلـة الوحدة ٣٣/ ١٩٨٧ المغرب.

(٤) ومنطقة كردستان هي عموما جبلية وعرة وقاسية، وقد أثرت العوامل الطبيعية على تطور ورقي كردستان، وكان لها أثران، فمن ناحية ساعدت الشعب الكردي على الاحتفاظ بهويته ولغته وتقاليده وثقافته على مر القرون، رغم كل الغزوات العربية والتركية والفارسية لأراضيه واحتلالها.. د. طاهر حسن الزيباري، مجلة سردم العربي العـد ١٧- ١٨، ٢٠٠٧، دار سـردم للنشـر والطباعـة، السليمانية.

(٥) ابـن خلـدون، المقدمـة، وزارة الثقافـة / عمـان ٢٠٠٩ص٣٧

(٦) للمزيد أنظر : جون جوزيف، اللغة والهوية، ترجمة: د. عبد النور خراقي، سلسلة عالم المعرفة ٢٠٠٧/٣٤٢ الكويت.

(٧) إلى موقع اللغة وأهميتها، فقد سعى النظام البهلوي في إيران إلى تغيير الهوية الأثنية للشعوب غير الفارسية في إيران، جاعلا إياها جزءا من الأمة " الإيرانية" الحديثة التي ستجمعها بها كل من اللغة والثقافة الفارسيتان. وللغاية ذاتها وضع التعليم تحت وصاية الحكومة، كما تمت مراقبته وعلمنته، ومن بين أهداف التعليم كان تهييج المشاعر القومية الإيرانية وتفريس إيران. وقد فرضت اللغة الفارسية بوصفها اللغة الرسمية للتدريس، كما عزز الأدب الفارسي بوصفه ثقافة قومية، أما تاريخ إيران فقد جعل منه موضوعات مفروضة (للمزيد ينظر : جويا بلاندل سعد/ صورة العرب في الأدب الفارسي الحديث، ترجمة صخر الحاج حسين، شركة قدمس للنشر والتوزيع، بيروت (بلا تاريخ طبع).

(٨) نزيه أبو نضال، اللغة القومية – الحقائق التاريخية والتشويهات الراهنة، مجلة الوحدة العدد ٢٢: ١٩٨٧، المغرب.

(٩) ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦١، ص١٠٦٥

(١٠) جون جوزيف، مرجع سابق، ص٧.

(١١) يأخذ نزيه أبو نضال عن شبرنجر قوله : الأمة هي جمع من الناس يفكرون ويتكلمون على نحو واحد.

ويأخذ عن باور تساؤله : ما هي الأمة ؟ إن أية أمة ليست ممكنة الوجود بدون لغة مشتركة. ويأخذ عن ستالين هو الآخر قوله : لا يمكن تصور جماعة قومية بدون لغة مشتركة (نزيه أبو نضال، مصدر سبق ذكره).

(١٢) رومان ياكوبسون، أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب، ترجمة فالح صدام الامارة وعبد الجبار محمد علي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٩ ص٧٠.

(١٣) إدوارد سعيد، التمنع، التجنب، التعرف- تأملات حول البداية، الناشر بدايات، دمشق ٢٠٠٨.

(١٤) د. يحيى جبر، الواقع اللغوي في فلسطين، مجلة بيادر، تونس عدد٣، ١٩٩٠.

(١٥) د. يحيى جبر، نفسه.

المبحث الأول
اللغة والواقع الاجتماعي

" ليست الأمم كلها متساوية في النطق، فقد يكون لأمة من الحروف ما ليس لأمة أخرى. والحروف التي نطقت بها العرب هي ثمانية وعشرون حرفا، ونجد للعبرانيين حروفا ليست في لغتنا، وفي لغتنا أيضا حروف ليست في لغته وكذلك الافرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من العجم"

ابن خلدون / المقدمة

لربما مرّت اللغة على لسان الانسان في بداياتها الموغلة في القدم، بمرحلة كانت فيها مجرد أصوات، يلقيها ليعبّر من خلالها عن مشاعره وأحاسيسه من جهة، وليبيّن لغيره من البشر الذين يقاسمونه عصر الفطرة ما يريده منهم. ومن يعرف، فلربما أعقبت تلك المرحلة التي توصف بالبدائية، مرحلة أخرى انتقل فيها من بدائيته تلك، وتهذبت

فيها الأصوات التي كانت تخرج من حنجرته، فأصبح لها رنين وإيقاع جميلين، انتقل بهما من مرحلة محاولة محاكاة ما حوله من الرياح والحيوانات والطيور وسواها، ليصبح مخلوقا أكثر جمالية وهو المخلوق الجمالي في الأصل (وخلقنا الانسان في أحسن تقويم)، يحاول استخدام لسانه للتعبير عما يجيش في أعماقه. وبصرف النظر عما إذا كانت اللغة (توقيفية)، أي وحي من الله خالق الكون كما يرى ابن فارس في كتابه (فقه اللغة)، أو وضعية اخترعها الانسان كما يرى ابن جني في كتابه (الخصائص) وهو ما يذهب إليه العدد الأكبر من علماء اللغة، فإن حال الكلمة التي تعدّ اللبنة الأساسية في بنية اللغة، لا تختلف من حيث تطور الاستخدام عن حال الحجر، كلاهما كمصطلحين يلقيان الأنوار على منزلتهما الاجتماعية، الأول : الكلمة كواحدة من وسائل التوصيل، والثاني - الحجر كواحدة من أدوات العمل التي استخدمها الانسان في حياته الاولى - الكهف والرعي على وجه الدقة. وخلاصة القول هنا، فإن حال الكلمة كمثل حال الحجر في تموضعاته المتباينة، خلال حياة الانسان التي يلاحظ عليها عدم ثباتها على

حال، وخضوعها لمنطق التطور، وذلك بالنظر إلى ما كانت له من الوظيفة الاجتماعية التي لا يمكن التقليل من أهميتها. ونحن من أجل توضيح الأمر، لا تغيب عن أذهاننا قيمة الحجر الكبيرة خلال تلك العصور التي كان الانسان فيها يشعل النار بضرب حجرين ببعضهما، ويصطاد غزالا برميه بحجر حاد الأطراف، يكون قد تفنن في نحتها، وهكذا إلى غير ذلك من الاستخدامات. ولسوف يدرك القارئ أننا في هذا التصور، نودّ الاشارة إلى التدرج في المعنى، بعد أن لم يعد جوهر ذلك الحجر كما يقول الدكتور نوفلينوف كامنا في خواصه الطبيعية كالثقل والحجم والشكل، بل وفي وظيفته الاجتماعية.

في حال الكلمة والمقايسة مع ما سبقت الاشارة إليه من النمو والتطور في وعي الانسان بذاته وبما حوله، فإنه وفي بدايات حياة الانسان، لم يكن ثمة قاموس لغوي بالمعنى المرئي والمعرفي كمثل ما نعرف اليوم من القواميس والمعاجم، فالطباعة لم تكن قد عرفت، وإنما بمعنى عدد الكلمات التي كان الانسان يستخدمها في حياته، وقد تحددت الكلمات آنذاك بما يكفي منها للتعبير عن حاجاته القليلة كما

سبقت الاشارة، وذلك بالنظر لمحدودية المعرفة والخبرة.

لقد قيلت آراء عديدة في أصل اللغة. وكتبت نظريات فيها من الاختلاف والتباين أكثر مما فيها من أسباب التقارب، وإن بقي يجمعها ناظم الاعتقاد بأن اللغة نظام اتصالي له غايات اجتماعية. وعندما قال ابن فارس بأن اللغة توقيفية، فقد اعتمد في طرح هذا التصور على النص القرآني (وعلم آدم الأسماء كلها). وعلى العكس منه فإن ابن جني الذي قال بأنها وضعية، أراد أن يقرر مثلما فعل كثيرون سبقوه أو جاءوا بعده، بأنها إنما تأسست على قاعدة فكرة التواضع والاصطلاح بين مجموعة من الناس. وإلى هذا التباين في الآراء أيضا، ففيما يرى البعض بأن أصل اللغة واحد، وأن الأرض كلها عند بداية خلق الانسان كانت لها لغة واحدة ولسان واحد، وعلى غرار ما جاء به سفر التكوين التوراتي، الذي يقول أيضا بأن الله هو من بلبل اللغات وبلبل الكلام بين الأقوام، ثم فرق هذه الأقوام ومعها لغاتها المختلفة وعلى هذا النحو

كانت الأرض لغة واحدة

وكلمات واحدة

وفي ارتحالهم من الشرق
وجدوا سهلا في شنعار
وسكنوا هناك
وقال بعضهم لبعض
هلم نصنع لبنا (بكسراللام وتسكين الباء)
ونشويه شيّا
وقد كان لهم اللبن مكان الحجر
والحمر مكان الطين
وقالوا : هلم نبن لأنفسنا مدينة
وبرجا رأسه في السماء
فنجعل لأنفسنا اسما
حتى لا نتبدد على وجه كل الأرض
ونزل يهوه لينظر المدينة
والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونها
وقال يهوه : هو ذا شعب واحد
ولسان واحد لجميعهم
وهذا ابتداؤهم بالعمل
والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه
هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم
حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض
فبددّهم يهوه من هناك على وجه كل الأرض

فكفوا عن بنيان المدينة
لذلك دعي اسمها بابل (ببل)
لأن يهوه هناك بلبل (بلل) لسان كل الأرض
من هناك بدّدهم يهوه على وجه كل الأرض

(سفرالتكوين ١١،١-٩)

أو على هذا النحو(من هؤلاء الأولاد السبعة والأحفاد السبعة ليافث، تفرقت جزائر الأمم، بأراضيهم كل لسان كلسانه حسب قبائلهم بأممهم) (التكوين١٠/٥)، فإن آخرين رأوا عكس هذا، وقالوا أن اللغات في الأصل نشأت مستقلة بعضها عن بعض، وأن لكل قوم لغة، ليست كمثل غيرها مما يتداولها الناس الآخرون ويرددونها على ألسنتهم، ومن هؤلاء ماكس ملر، الذي يرى بأن الانسان الأول افترق إلى مناطق جغرافية مختلفة على وجه الأرض، قبل أن يستخدم صوته للدلالة على المعنى، ومثله موريس الذي افترض بأن اللغات في الأصل كانت اثنتي عشرة لغة أساسية، وإن كانت جميعها لها أصل واحد.

لقد كتب الكثيرون حول اللغة، ابتداء بسقراط وأفلاطون، ومرورا بابن جني وابن خلدون وابن سنان الخفاجي، وسواهم كإدوارد سابير و وتني وماكس ملر وسوسير والعشرات غيرهم. وعندما قال إيرك لينيبرغ بأن اللغة ليست موروثة وحسب، وإنما لها خاصية جنسية (بمعنى الانتماء للجنس البشري) لا يتعاطاها إلا الانسان العاقل[1]، فقد أراد أن يقدم تفسيرا منطقيا ومقنعا لفكرة الحيوان الناطق التي قيلت في وصف الانسان، الذي بقيت اللغة لصيقة به، منذ فجر تاريخه وحتى العصر الحديث.

لغويون وآخرون سواهم ممن لهم علاقة بالفكر وعلم الاجتماع، توقفوا أمام ما اعتبره اللغوي الألماني هامبولدت " الجهاز العضوي والشرط اللازم للفكر"[2]، فقال فرانز بوب بأن اللغة جسم عضوي حي، ينمو ويكبر، ويعرض له ما يعرض للكائن الحي. وقال دينبار صاحب كتاب (التهندم وكلام الناس وتطور اللغة) الذي سبقت الاشارة إليه، أن اللغة تخدم غايات الفرد الذي يبحث عن تشكيل حلف ما[3]، وقال قاسم العتمة : اللغة تعمل على تقديم نظام اتصال وارتباط بين الناس بسيط وعضوي، عبر نسق متحد من الكلمات والاشارات

والإيماءات والمعاني الحسية والروحية التي تحدد البيئة الحضارية والثقافية والاجتماعية[٤]. وأما أندرسون فيقول في تعريفها : إن اللغة هي الأساس الصلد الذي تقوم عليه قصة الأمة[٥]. وإذا ما أضفنا إلى ما سبق ما يقوله كل من ميشال زكريا وإدوارد سابير وسيفن بنكر [٦] فإنه سيكون من الصائب القول بأن أهمية اللغة تظهر في كونها تتوسط النشاط الاجتماعي للانسان، على اعتبار أنها الأداة الاولى للتواصل والتفاهم الاجتماعيين، والوعاء الحامل لثقافة الجماعة البشرية الناطقة بها، وخبراتها المتراكمة عبر العصور، ووفقا لها تحدد الانتماءات الاجتماعية والعرقية[٧].

وخلاصة القول فإن اللغة في إحدى أهم تجليات الانسان، ما كان لها أن تنشأ بدون وجود حاجة إليها. ولأن طبيعة هذه الحاجة وماهيتها تختلف من أمة إلى أخرى في طريقة التعبير، فقد اختلفت اللغات وتباينت. بيد أن الأهم من بين ما تجب معرفته، أن الكلام لفظا أو كتابة عبارة عن مجموعة من الرموز اخترعها الانسان في زمانه للدلالة على الأشياء، ولولا هذه الملكة الموجودة في الانسان دون الحيوان

التي تمكنه من استعمال الرموز، لما كانت لغة في الوجود[٨].

ويضعنا تعريف ابن سنان الخفاجي للغة باعتبارها ما يتواضع القوم عليه من الكلام أمام شكل من العمل الاجتماعي، يغلب عليه الفعل الجماعي الذي يشترك فيه أفراد الأمة جميعهم بدون استثناء. ومن هنا يقال بأنه لا بدّ إلا أن تكون اللغة اجتماعية الدلالة، والمعنى فيها لا بدّ أن يخضع للاصطلاح والتوافق الجمعي. ومن هنا أهميتها في توحيد الأمة والمحافظة على شخصيتها التي هي هويتها التي لا بدّ أن تحمل مميزات وصفات قد لا نجد ما يماثلها في غيرها من هويات الآخرين ولغاتهم. إن ثيمات هامة مما ورد ويرد عند التوقف أمام تعريفات اللغة كمثل المواضعة والاصطلاح والتوافق الجمعيين، والأمة وشخصيتها، والدلالة والمعنى، واللغة والمفهوم الاتصالي، وسوى ذلك الكثير، جميعها تؤكد بأنه من غير الصحيح صرف النظر عن الممارسة الاجتماعية في الملفوظيات، وأولها الاستدلالات الفلسفية والمنطقية في التفاعل الاجتماعي ومنظوراته الذاتية العامة والخاصة[٩].

إننا بالاشارة إلى تطور اللغة وما يصاحب هذا من التطور في وعي الانسان هو الآخر، إنما نقصد الوصول إلى ما يبين أبعاد الجدل الذي بدونه ما كان لعملية التطور أن تحدث. وخلاصة الرأي بخصوص هذا الجدل أن الانسان بانتقاله من حالته الفردية في التعبير عن ذاته، والتي ربما بقي يدندن فيها مع نفسه، أنغاما وأصواتا معينة، إلى الأخرى - حالة الجماعة التي هي حالة المخلوق المعشري الذي يعيش في وسط بيئة اجتماعية واسعة ويتعامل معها في كل لحظة من لحظات حياته، واضطراره بالتالي لمخاطبة سواه والتفاهم معهم، والتعبير عن مراده وفهم ما يريدونه منه، إن بالاشارات والرموز أولا، أو بالكلمات أو بالأصوات لاحقا، استطاع أن يكوّن له لغة. هذا يفيد بأن التطور الذي مكن الانسان من تكوين لغة له، ومكنه من صنع الأدوات واستعمالها في الوقت عينه، لا يكون إلا في معشر اجتماعي تعاوني، يعتمد على التناسق والتناغم بين أفراد هذا المعشر، وهو ما يستلزم استعمال اللغة بحكم الضرورة (١٠). وهنا فإن الكثيرين من علماء اللغة، يتفقون على أن الانسان في تطوره، تطورت معه لغته هي الأخرى باعتبار وجود علاقة عضوية

بينهما. إننا لكي نفهم هذا كله، أمام تاريخ طويل من انتقاء الكلمات وخلقها كما تقول باربرا وايتمر، بهدف تفسير الظروف المتغيرة لإفساح المجال للتكيف والتأقلم - تقصد تكيف اللغة وتأقلمها - مع الأحداث الداخلية / الخارجية، وهو تاريخ تطور الفرد اللغوي ونموه بصورة أخرى. وإذا كان ستالين وكما سبق القول قد نفى إمكانية تصور جماعة قومية ما بدون لغة مشتركة، على اعتبار أن هذه اللغة هي نتاج المجرى العام لتاريخ المجتمع وبنائه التحتي لعدة قرون، فإن العالم اللغوي باور في تساؤله حول ماهية الأمة يقرر بأنه ليست هناك أمة ممكنة الوجود بدون اللغة المشتركة.

إن وسيلة الانسان اللغوية التي نتناولها، تتأثر لا بدّ بالاختلافات المكانية والاجتماعية. ومن هنا قيل بأن كل لغة إنما تنمو وتتطور على وفق منطق داخلي خاص بها، وليس على وفق منطق أية لغة أخرى في مجتمع آخر. يقول جون جوزيف : لقد كان هدف علم اللغة الاجتماعي وهو يتطور في غضون القرن العشرين والنصف الثاني منه خصوصا، فحص تلك المميزات داخل لغة من اللغات، إذ من خلالها يتسنى لنا قراءة الأصول

الجغرافية والاجتماعية لشخص ما، بالاضافة إلى مستواه التعليمي، وأثنيته، وعمره، وجنوسته وجنسيته [١١].

هذا الحديث يشمل الإطار الاجتماعي للغة. مثال هذا نفهمه من النظرة الدقيقة إلى حوار ينحصر في حدود عائلة تناقش أوضاعها الاقتصادية، وحوار آخر سيختلف حتما إذا ما كان بين هذه العائلة وبين الجيران حتى لو استخدمت اللغة ذاتها، ولكنه يدور حول الطقس والاستعدادات لاستقبال فصل الشتاء. ولقد قال ياكوبسون في جواب على سؤال كريستينا بومورسكا : إن وسيلتنا اللغوية يجب أن تتغير[١٢]. وبينما يعرّف سوسير الذي هو أب اللسانيات الحديثة اللغة بالقول بأنها نظام من الاشارات التي تعبّر عن أفكار، فإن آخر سواه يعتبرها ظاهرة إجتماعية، أو في تعبير آخر، نمطا إجتماعيا منظما ليس له وجود فيزيائي. بيد أنه يتحقق في مناسبات معينة في السلوك اللغوي الذي هو الكلام[١٣].

إن الكلام هو الذي يخرج اللغة من كمونها كما يقول الشايب، أي أنه يخرجها من حالة الوجود بالقوة، إلى الوجود بالفعل. ولعل التمثيل الأجمل للغة يظهر في القول التالي : اللغة نظام معقد من

العادات. إنها منشأة بشرية مكونة من بنى أو مستويات مختلفة الأنواع. فهي على هذا أشبه شيء بهيئة من النظم، أو هي منظمة من النظم[١٤].

عندما قال خالد بن صفوان بأن الانسان لولا اللسان لن يكون سوى بهيمة مهملة، فقد كان يؤسس حقا للكثير من المفهومات التي ظهرت في عصرنا. وعندما اعتبر علماء اللغة الاجتماعيون الكلام نشاطا اجتماعيا فرديا وجماعيا، فقد أرادوا تصوير قيمة اللغة وحقيقتها الفلسفية والوجودية. ونحن لهذا السبب اخترنا زاوية النظر الاجتماعية لنطل منها على تاريخ اللغة. وإذا كان ثمة هناك ما تمكن تسميته بعلم اجتماع القصة، أو علم اجتماع الرواية، وهما علمان موجودان فعلا، فإنه ثمة هناك في موازاة هذه النظرة، تلك التي تقول بوجود علم اجتماع اللغة، وهو العلم الذي يزاوج بين نظرتين: النظرة التاريخية للغة، والنظرة الاجتماعية لها. يقول شيشرون : لا شيء أشدّ مماثلة لمشاعرنا الطبيعية من إيقاعات أصواتنا. إنها تثيرنا وتؤججنا. تهدئنا وتسكننا، وغالبا ما تقودنا إلى الفرح والترح[١٥]. أو في معنى يكمل هذا، فإن اللغة التي يتداولها البشر على ألسنتهم، وفي شكل يختلف عما عند بقية

المخلوقات كالحيوانات والطيور إنما هي ظاهرة تعبيرية، تتوسط كما يقول وليد العناتي النشاط الاجتماعي للانسان، باعتبارها الأداة الاولى للتواصل والتفاهم الاجتماعيين، والوعاء الحامل لثقافة الجماعة الناطقة بها، وخبراتها المتراكمة عبر العصور، وهي التي على وفقها تتحدد الانتماءات الاجتماعية والعرقية (١٦).

ومما يجب الانتباه إليه، أن القول باجتماعية اللغة، إنما يعني ضمنا، أنها تدور على ألسنة أفراد بأعينهم يجمعهم انتماء اجتماعي وجغرافي(١٧). وهنا نتساءل : هل إن اللغة مجرد مجموع من الكلمات ؟ فإذا كان الأمر على هذا النحو، فإنها قطعا لا قيمة إجتماعية لها، وستبقى مجرد وسيلة للتقارب والتفاهم لا غير، ولكن ولأنها ليست على هذا النحو، أي ليست مجرد مجموع من الكلمات، فإنها وكما يقرر العلماء منذ سوسير وحتى بنجامين لي دورف وبنفنيست، نظام يتحكم بالفكر، ولا تفكير بغير اللغة، وهذا هو نفسه ما دعى إدوارد سعيد إلى القول : لذلك ينظر إلى لغة ما على أنها بنية أو نظام له شروط محددة لا تتحكم بالفكر وحسب، بل تعطيه إلى ذلك طابعه. وهكذا

فإن الثقافة هي في أساسها الفكر الذي تتيحه طاقات اللغة[١٨].

صحيح أن اللغة ينتجها واقع إجتماعي ما بهدف التعبير عنه، إلا أنها لا تخلق هذا الواقع. ومن صائب القول بأن اللغة تعمل عمل القوانين والنظم المدنية ولكن من الداخل. أي أنها تعمل من الذاكرة العقلية والوجدانية، معبرة بذلك عن مجموعة العلاقات الانتاجية والاجتماعية القائمة ومضامينها، بسلوك في الخارج تحدده وترسمه الألفاظ والأصوات[١٩].

ما الذي يجعل الكردي يشعر بكرديته ؟ إنه سؤال هام وعلى قدر كبير من الحساسية، وإن عدم دقة الاجابة عليه، يوقع الباحث في مأزق كبير ربما يصعب عليه الخروج منه. وفي تأملات إدوارد سعيد حول البداية، فإنه يرى بأن كل مجتمع إنساني يحدد نفسه على نحوين : أولا عن طريق تحديد الفارق بينه وبين غيره من المجتمعات، وثانيا بتحديد ميزاته الخاصة[٢٠]. وهكذا فإلى الاجابة عن السؤال، فإن اللغة هي ما يجعل الكردي يشعر بالانتماء إلى جماعة أو أمة هي أمته الكردية، نظرا لما تكون هذه اللغة قد زرعته فيه من الاحساس القوي والعميق

بوحدة الرابطة الفكرية والنفسية والوجودية مع كرد آخرين، يعيشون معه في الحيز الجغرافي ذاته، الذي يسمى كردستان، حتى وإن كانت تتقاسم هذا الحيز أربع دول في ظروف قاهرة بالقوة، نرى أنها لا بدّ أن تتزحزح وتغادر المكان، في محصلة الصراع المعلن والمستتر بينها وبين الكرد سكان الأرض الأصليين.

إن الكردي الذي يتكلم بالكردية، ويكتب بها كذلك، فإنما يعبّر عن نفسه بلغة آبائه وأجداده، التي عادة ما تسمى بلغة الأم، ذلك لأن القوة التي تحاول انتزاع أرضه من فضائها، لم تستطع أن تنتزع منه لغته، وهكذا فقد تجاوزت هذه اللغة مختلف عوامل القهر والاستلاب والتغييب عن وجود الكرد الحياتي، ومن هنا يصح القول بأن اللغة الكردية تعدّ واحدة من اللغات الحية التي لا تموت. وهي قد بقيت خلال تاريخها الطويل الذي تعود بدايته إلى ما قبل الميلاد، عامل توحيد، ولها آثارها الهامة اجتماعيا وسيكولوجيا في حياة هذا الشعب الذي يتكلم بها. بل وإنها في صريح العبارة بقيت الحاضنة التي يحتمي في داخلها من خصومه التاريخيين الذين حاولوا سحق وجوده تماما. ومن هنا جاءت قدسيتها أيضا.

إننا في أي حديث حول الأمة الكردية، وبالذات حول تكوينها النفسي والوجداني والعقلي، لا بدّ أن نقول بأن هذا التكوين إنما هو حصيلة ما صنعته اللغة الكردية في الواقع، والتي هي عدا عن كونها الوعاء الذي يختزن فيه الكرد مختلف شؤون حياتهم، نظام عقلاني دائم التداخل في البنية النفسية للفرد الكردي، الذي يحمل حرصا كبيرا على التواؤم مع جماعته التي يعيش في وسطها، وهو مما سيكون من شأنه تواصل الأجيال الكردية مع بعضها بطريقة أوتوماتيكية أو عفوية، وهو التواصل الذي حوّل الأمة الكردية إلى جماعة بشرية تتدفق منها حيويتها باستمرار. ولعل مثال الشاعر الكردي الكبير

(أحمدي خاني) الذي كتب رائعته الخالدة(مم وزين) بلغته الكردية، على الرغم من قدرته على كتابتها بإحدى اللغتين الفارسية أوالعربية اللتين كان يتقنهما، إنما يشير إلى أن هذه اللغة لم تكن في أي من مراحل حياتها، سببا لأزمة كمثل تلك التي أشار إليها إدوارد سعيد، يمكن أن يشعر بها المثقف أو الشاعر الكردي، وإنما على العكس من هذا، بقيت سببا للافتخار بها باعتبارها لغة شعب، حتى وإن كان مغلوبا، فإنه لم يظهر كما تفعل غيره من

الشعوب التي تحتل (برفع التاء) أراضيها بالقوة، بأنه مولع بالاقتداء بالغالب، وعلى وفق ما كان يتصوره ابن خلدون في قوله : المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، على اعتبار أن النفس أبدا تعتقد الكمال في من يغلبها، فتنقاد إليه إما لنظرة بالكمال، بما وفر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب(٢١).

يقول المؤرخ والأديب الكردي علي سيدو الكردي: كنت حتى سنة ١٩٣١ لا أعرف من الكردية كلمة واحدة. وفي هذه السنة بالذات سافرت إلى بغداد ومنها إلى الألوية الكردية في شمالي العراق، وشعرت وأنا أتجول مع أصدقاء لي في مختلف مدن كردستان الجنوبية وقراها، بالخزي لجهلي اللغة الكردية، فعزمت على تعلمها ودراستها دراسة علمية صحيحة(٢٢).

وسوى هذا، فإن قبيلة نوح عندما وجدت إبان رحيلها سهلا في أرض شنعار، استقرت فيه، وقرر قادتها بناء مدينة وبرج " وقالوا هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسماء، ونصنع لأنفسنا اسما

لـئلا نتبـدد علـى وجـه كـل أرض، ولنتخـذ لنـا اسـما خشية تفرقنا في كل بقاع الأرض " [٢٣].

المثـال هذا يفيد بـأن التفكيـر بالتسـمية، إنمـا يعنـي رغبـة القـوم بالمحافظـة علـى وحـدتهم : ذلـك أنـه فـي حالة عدم وجـود اسم لهـم، فـإن الفرقـة والتـوزع فـي أرجـاء الأرض سيدبان فـي حيـاتهم، علـى اعتبـار أن وجود الاسم إنما يعني وجود لغة مشتركة، تكون مع المكـان المشـترك – المدينـة والبـرج عـاملا فـي المحافظة على الهوية. وكمـا قـال نيتشـه : فـأن تطلـق الأسماء، هو أن تكون سيدا، ودومـا فـإن استراتيجية التسـمية، هـي اسـتراتيجية هيمنـة وتسـلط، وتـاريخ الأشـياء هـو تـاريخ مسـميات، وهـو بالتـالي تـاريخ أسماء [٢٤].

تعريـف سوسير للغـة كـان أكبر ثـورة لسـانية قـام بها. ولأنها كما سبق القول نظـام من الاشـارات التـي تعبّـر عـن الأفكـار، فـإن للصـوت الـذي يصـاحب الكلمـات فيهـا معنـى. والمقصـود بـالمعنى هنـا، الأغـراض التـي أشـار إليهـا ابـن جنـي فـي كتابـه (الخصائص): إننا عند الحديث حول الحدّ الوظيفي للغـة، لا يغيـب عـن أذهاننـا أنهـا الجهـاز الـذي ينـتج الفكـر ويصـوغه ويقدمـه للآخـرين، علـى وفـق آليـة

محددة، هي في شأنها أقرب إلى العفوية منها إلى ما يتطلب إشغال العقل. وفي تعبير أقرب إلى الدقة، فإن اللغة ليست كما قال عنها أرسطو : المرآة الصادقة للعقل، وذلك لأن المرآة لا دور لها سوى الانعكاس، في حين أن دور اللغة يتجاوز هذا الفعل إلى ما هو أهم من دور المرآة [٢٥].

ليست قضية المعنى في اللغة مجرد أمر عابر، فهي من الأهمية بحيث يقال بأن اللغة صوت ومعنى كلاهما معا، ولا وجود لأحدهما بدون الآخر. يقول اللغوي الألماني هامبولدت : فعملية الكلام تنحصر في منح الفكر المادة التي يعتمد عليها. فاستعمال الأصوات المقطعة في نقل الفكر يزيل عنها الابهام، ويترك عوضا عن ذلك أثرا ثابتا، إذ يقوم العقل أو الذهن بجمع المعاني جمعا من الأصوات المتعاقبة. وبمعنى آخر، فإن ما تنير جوانبه الكلمات – اللبنات المؤسسة للغة، لن يظهر جليا إلا بالتتابع اللغوي، وما يشترط لذلك من استخدام العقل – جهاز البحث عما تواضع عليه الناس.

ويبرز علم اللسان الحديث أن الرمز اللغوي الدال، لا قيمة له في ذاته مستقلا، ولا تتعين دلالته، أو وظيفته في ماهية مجردة، إنما تتأسس على

العلاقة التقابلية الخلافية بينه وبين الرموز الأخرى[٢٦].

إن وسيلتنا اللغوية وبصرف النظر عما إذا كانت هبة إلهية أو سوى ذلك، هي ما تنير كل ما حولنا، وتثري معارفنا، وتذلل صعوبات التفاهم بين البشر[٢٧]. إنها التعبير الرمزي للعالم [٢٨]. ومنذ أقدم الأزمنة، كانت عمليات تصنيف الأقوام والأجناس البشرية تتم على أسس ذات طابع لغوي وجغرافي : فهؤلاء عرب، وغيرهم روم، وسواهم كرد، وهكذا إلى غير هذا من الأقوام. واللغة التي تجمع أفراد المجتمع وتوحدهم، وتؤسس في الوقت نفسه لقيام الأمم، تقوم على المعنى قبل كل شيء، وأما ما يرتبط بماهيتها، أي بما فيها من الصرف والنحو وسواهما مما يرتبط بالأسماء والأفعال وصيغها، فإنما هي عوامل تساعد على خدمة المعنى. فنحن في استعمالنا اللغة، يكون لنا في أنفسنا معلومات أو أحاسيس أو أفكار، نحاول إيصالها إلى الخارج عن طريق الكلمات التي هي رموز، والرموز ما هي إلا تمثيل للأشياء وهي ليست الأشياء [٢٩].

إننا كبشر قبل أن نكون سوفسطائيين على سبيل الأدلجة، كائنات لغوية على سبيل الأنطلجة، بمعنى

أننا من وجهة نظر أنطولوجية، أو وجودية، كائنات تسكن اللغة، تجوب فضاءها وتتموقع في مساحتها[٣٠]. أليست اللغة كما يقال فيها هي وعاء الفكر ؟ أليست هي ما يحمل المخزون الثقافي لهذا الشعب أوذاك مما يضيء جوانب حياته في مستوياتها المتعددة والمتنوعة ؟ وبالتالي فما دامت حالها كذلك، أليست اللغة اجتماعية أساسا على اعتبار أنها تجسد الاشارات أو العلامات التي يتم اتفاق الناس عليها ؟ إنها كذلك بالفعل، ولعلها قبل غيرها تعتبر الوجود الجدير بالفهم بحسب غادامير الذي يراها أوسع من اختزالها في إشارات منطقية أو إشارات ألسنية، أو علامات اعتباطية، لأنها قبل كل شيء فضاء التشكيل الرمزي والتصوير الخيالي وأفق التعبير الوجودي والتدبير الذاتي [٣١]. وفي إحدى إجابات ياكوبسون على سؤال للكاتبة كريستينا، يشير إلى ما قاله له تروبتسكي في واحدة من أهم رسائله والذي منه قوله : إنني متفق تماما مع آرائك. إن هناك العديد من العناصر في تاريخ اللغة تبدو تصادفية، ولكن التاريخ لا يمتلك الحق بأن يقتنع بهذا التفسير، وعندما يعكف المرء على دراسة الخطوط العامة لتاريخ اللغة بشيء من الاهتمام

والمنطـق، فإنهـا لا تبـدو تصـادفية، وبالنتيجـة فـإن التفصـيلات الصـغيرة لا يمكـن أن تكـون تصـادفية أيضا [٣٢].

هذه هي اللغة التي يعرّفها كل من بلوك وتريجر في كتابهما (الموجز في التحليل اللغوي) بقولهما : هي منظومة من الرموز الصوتية الاصطلاحية التي يمكن بواسطتها لمجموعة من الناس في مجتمع معين التعاون[٣٣]. ويبقى من الضرورة الاشارة إلى تعريف سيفن بنكر الذي يجيء على وفق الاشارة إلى الجهاز العصبي المتحكم في النشاط الحيوي للانسان، وفيه يقول : إن اللغة شيء نتعلمه مثلما نتعلم الاحساس بالزمن، فهي قطعة من التكوين البيولوجي لأدمغتنا، تتطور وتنمو بنمو الطفل عفوا من غير جهد، وهي تنقل دونما إحساس بقواعدها، جلّ ما يريد المتكلم نقله، من معان، ولهذا لا نستغرب وصفها بالمقدرة السيكولوجية، والأداة العقلية، والنظام العقلي، والوحدة الحاسوبية[٣٤].

في كتاب (التهندم وكلام الناس) الذي سبقت الاشارة إليه، يموضع عالم النفس دينبار أصل اللغة في حاجة الانسان إلى تشكيل ما يسميها الأحلاف الاجتماعية، التي يكون الهدف من ورائها التعامل

مع التحديات التي تعترض سبيله في البيئة التي يعيش فيها. ولسوف يلاحظ الباحث في اللغة وتطورها، أنها وكما أعلن سوسير في كتابه (دروس في علم اللغة العام) أنها بالاضافة إلى كونها حدثا اجتماعيا كما سبق القول، تعمل القوة الاجتماعية – قوة المجتمع أو الأمة على تماسكها – تماسك النسق اللغوي وبقوة شديدة، إلى الدرجة التي تجعل الفرد – كجهد فردي غير قادر بتاتا على التأثير فيها بما يعيبها أو يغيّر مجراها على الألسن.

ومعنى ما سبق فإن اللغة التي تحمل مجموعة من الخصائص الاجتماعية الدافعة باتجاه الوحدة، ليس لها تاريخ خاص يمكن أن يمضي بمعزل عن الحياة الاجتماعية التي ستحمل خصائصها المشار إليها. وحينما نقول بأن هذه اللغة حية وأنها لا تموت، فذلك لأنها التي عن طريقها يتم نقل ما توصّل إليه الآباء والأجداد في مسيرتهم الحياتية إلى الأجيال اللاحقة، بطريقة عفوية كما يقول قاسم العتمة وإقتصادية، ومن هنا يحق القول فيها أنها الدليل إلى وجود الجماعة. إن العلامة اللغوية تجسد العلاقات الاجتماعية لمستعمليها. وضمن هذا المفهوم، فإن الهوية الاجتماعية حاضرة في اللغة ذاتها[٣٥].

يقـول العنـاتي : ويمثـل درس التبـاين – يقصـد التبـاين بـين اللهجـات وبـين قـراءات القـرآن – فـي التراث اللغوي العربي أساسا متينا فـي الفكر اللغـوي العربي، إذ يكشف عن وعـي علاقة اللغة بـالمجتمع، وكيفية عكس البنية اللغوية للبنية الاجتماعية، وكيفيـة تغيـر الأداء اللغـوي وفقـا لعوامـل إجتماعيـة متعـددة كالبيئـة والمـوطن والجـنس والطبقـة الاجتماعيـة والمهنـة(٣٦). ولسـوف ينتبـه الباحـث إلـى تـأثير هـذه العلاقـة عنـد توقفـه أمـام مسـار اللغـة الكرديـة، التـي وجدت فـي النظـام الاقطـاعي الـذي سـاد زمنـا طـويلا عنصـرا إيجابيـا، تمثـل بمحافظتـه علـى هـذه اللغـة، على اعتبار مـا كـان لـه من دور كبير فـي المحافظـة على خصوصية هوية كردستان والكرد بحسب رأي باسيلي نيكيتين.

صـحيح أن أحمدي خـاني حينمـا كتب ملحمـة (مم وزيـن) باللغـة الكرديـة فإنمـا كتبهـا للتعبيـر عـن اعتزازه بها، ولأنه من جانب آخر وجد فيها الطاقة الكامنة التي في مقدوره بعثها، بحيث تتحول الكلمات إلى درر ولآلئ، إلا أنه من الأهمية كذلك القول بـأن هذه الخطوة الجريئة كما يصفها فاضل كريم أحمد، كانت من أجل العثور علـى الهويـة القوميـة الخاصـة،

والمحافظة على سمات الأمة وثروتها الثقافية العظيمة، ومنع إذابتها بكل سهولة في الدين والسلطة الحاكمة[٣٧]، وهي ما كانت لتحدث لولا التطور الذي حصل في زمانه على المستوى الاجتماعي والبنية الذهنية الكردية، التي كانت تناضل من أجل تحقيق الاستقلالية.

ومما نقرأه في تعريف القومية : في الدلالة السياسية للمفهوم، يرتبط مفهوم القومية بمفهوم الأمة، من حيث أنها الانتماء إلى أمة محددة، والأمة هي الشعب ذو الهوية السياسية الخاصة، الذي تجمع بين أفراده روابط موضوعية – شعورية – روحية متعددة، تختلف من شعب لآخر مثل اللغة، العقيدة، المصلحة، التاريخ[٣٨].

أخيرا فإذا كانت إحصاءات اليونسكو بشأن الواقع اللغوي في العالم قد قالت بأنه يوجد في عالمنا الراهن نحو ستة آلاف لغة، إلا أن المفارقة الغريبة أن نحو ٩٦% من سكان العالم يتحدثون ٤٠% فقط من تلك الآلاف الستة من اللغات، فمع أيهذه النسب يقع الكرد ولغتهم، وهل إنهم ممن يتكلمون لغتهم الخاصة بهم، أم إنهم يستخدمون لغة غيرهم ممن يحتلون أراضيهم، كما هي الحال في بلدان عديدة في

أمريكا الجنوبية وإفريقيا وآسيا، تم احتلال أراضيها بالقوة في أوقات سابقة، وبالتالي : لماذا يستخدمون لغتهم وليس أيا من لغات غيرهم ؟ هل إنه حب الذات المجرد، أم إنه الدفاع عنها ؟ هذا ما سنحاول الاجابة عليه في الصفحات القادمة...

الهوامش :

=======

(١) أنظر – د. فوزي حسن الشايب، محاضرات في اللسانيات، منشورات وزارة الثقافة، عمان ١٩٩٩، ص٢٣.

(٢) عن د. إبراهيم خليل، اللغة بين التعريف والتوصيف، مجلة أفكار العدد ٢٤٧، ٢٠٠٩، عمان.

(٣) عن جون جوزيف، اللغة والهوية، ترجمة د. عبدالنور خراقي، سلسلة
عالم المعرفة، الكويت العدد ٣٤٢، ٢٠٠٧ ص٥١.

(٤) قاسم العتمة، اللغة العربية كأداة توحيد، مجلة الوحدة العدد ٣٣، ١٩٨٧ المغرب.

(٥) جون جوزيف، المرجع نفسه ص٨

(٦) يقول ميشال زكريا : اللغة وسيلة توصيل وفعل لساني قصدي، الدلالة فيه والمعنى خاضعان للاصطلاح والتوافق الجمعي.

- يقول إدوارد سابير في اللغة : هي طريقة بشرية وغير غريزية، لنقل الأفكار والأحاسيس والرغبات برموز يتم انتاجها طوعا.

يقول سيفن بنكر : إن اللغة شيء نتعلمه مثلما نتعلم الاحساس بالزمن، فهي قطعة من التكوين البيولوجي لأدمغتنا، تتطور وتنمو بنمو الطفل عفويا من غير جهد.

(٧) د. وليد العناتي، التباين وأثره في تشكيل النظرية اللغوية العربية، وزارة الثقافة، عمان ٢٠٠١، ص٢١.

(٨) حسن سعيد الكرمي، اللغة ونشأتها وتطورها في الفكر والاستعمال، وزارة الثقافة، عمان ٢٠٠٢، ص١٨.

(*) ومما يستحسن ذكره أن القدماء في جزيرة العرب على ما يبدو، يعترفون بإله خاص بالبلبلة، واسمه آل بلاب. ويبدو أنهم كانوا يعترفون في الوقت ذاته بوجود إله خاص باللغة والكلام، واسم هذا الإله كان آل شافي (ء ل شف) أو آل لسان (ء ل لسن)، والدليل الجغرافي على ذلك، وجود قريتين في غرب الجزيرة العربية اسم الواحدة منهما آل شافي، والأخرى آل لسان... كمال الصليبي، خفايا التوراة، ص٨٨

(٩) د. عبد الله أبو هيف، اللغة والاعلام واعتبارات إنتاج المعرفة، مجلة أفكار العدد ٢٤٧، ٢٠٠٩، عمان.

(١٠) حسن سعيد الكرمي، نفسه ص١٦.

(١١) جون جوزيف، نفسه ص٤٧.

(١٢) رومان ياكوبسون، ترجمة: فالح صدام الامارة، د. عبدالجبار محمد علي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٠، ص٨٣.

(١٣) د. فوزي حسن الشايب، نفسه ص٢٣.

(١٤) الشايب، نفسه ص٥٨.

(١٥) جون جوزيف، نفسه ص٣٦.
(١٦) د. وليد العناتي، نفسه ص٢١.
(١٧) د. وليد العناتي، نفسه ص٢١.
(١٨) إدوارد سعيد، تأملات حول البداية، بدايات للنشر، ٢٠٠٨، دمشق ص٣٩
(١٩) قاسم العتمة، نفسه.
(٢٠) إدوارد سعيد، نفسه ص١٢.
(٢١) ابن خلدون، المقدمة، وزارة الثقافة، عمان ٢٠٠٩، ص١٦٢.
(٢٢) أنظر د. محمد علي الصويركي، المؤرخ والأديب والأستاذ الكبير علي سيدو الكردي، مجلة سردم العربي، سليمانية ٢١/ ٢٠٠٨ (وجدير بالذكر أن سيدو هو أول أردني يتخرج في الجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٩٢٨، وهو والد الطبيب الشهير أشرف الكردي، وله معجم لغوي شهير (القاموس الكردي الحديث) الذي جاء في الاهداء الذي في بدايته مايلي : إلى روح جدتي لوالدي " مدينة " كريمة محمود آغا آل " أومريكي " رئيس عشيرة آل " أومريكا " القاطنة في القرى المجاورة لمدينة ديار بكر في الاقليم الكردي بالجمهورية التركية، تلك المرأة الفاضلة التي غرست في نفسي محبة لغة الآباء والأجداد، وإلى الأمة الكردية العريقة في القدم، تلك الأمة التي حافظت على لغتها وأصالتها العرقية، وقاومت الغزاة الفاتحين عبر أقدم العصور التاريخية، واستمرت ثابتة إلى

هذا اليوم، في حين دالت تلك الدول وانصهرت شعوبها في قوميات أخرى.

(٢٣) سفر التكوين ٤/١١

(٢٤) عبد السلام بنعبد العالي، الحوار بين الثقافات والصراع بينها، مجلة ثقافات ١٠/ ٢٠٠٤ البحرين.

(٢٥) د. إبراهيم خليل، اللغة بين التعريف والتوصيف، مجلة أفكار ٢٠٠٩/٢٤٧

(٢٦) د. وليد العناتي، المرجع السابق ص٩.

(٢٧) يضع كونستانتين سريل(٨٢٧-٨٦٩) هذه الأشعار السلافية كمقدمة لترجمته الأناجيل الأربعة :

لذلك استمعوا الآن بعقولكم
ذلك لأنكم تعلمتم أن تستمعوا أيها الشعب السلافي
اسمعوا الكلمة لأنها نزلت من الرب
الكلمة المغذية للأرواح البشرية
الكلمة المقوية للقلب والعقل
الكلمة التي تهيؤ الجميع لأن يعرفوا الرب
ذلك لأنه دون الضياء سوف لن تكون هناك متعة
لأنه بينما ترى العين جميع خلق الرب
فإنه سيفتقر الجمال ذلك الذي يرى بدون ضياء
وهكذا فإنه الحال ذاته مع كل روح تفتقر إلى العلم
الجاهلة بقانون الرب
القانون المقدس للكتب الإلهية

القانون الذي يكشف جنة الرب
لأن ما تسمعه الأذن
صوت الرعد، فهل ستخشى الرب
أو كيف تستطيع الأنوف التي لا تشم الورود
أن تحس المعجزة السماوية
والفم الذي لا يتذوق الحلاوة – حلاوة الكلام
يجعل الانسان كالحجر

(٢٨) د. وليد سيف، في المقدمة إلى كتاب التباين وأثره في تشكيل النظرية اللغوية للدكتور وليد العناتي ص٩.
(٢٩) حسن سعيد الكرمي، مرجع سابق ص٨٩.
(٣٠) محمد شوقي الزين، إزاحات فكرية - مقاربات في الحداثة والمثقف، منشورات الاختلاف ط١ /٢٠٠٨ الجزائر ص٥٣.
(٣١) محمد شوق الزين، نفسه ص٣٣-٣٤.
(٣٢) رومان ياكوبسون – أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب، ص٧٠.
(٣٣) عن – حمزة المزيني، التحيز اللغوي، كتاب الرياض، ط٢٠٠٢/١ الرياض ص٣٣٢.
(٣٤) عن د. إبراهيم خليل، اللغة بين التعريف والتوصيف، مجلة أفكار ٢٠٠٩/٢٤٧.
(٣٥) جون جوزيف، المرجع نفسه ص٨٠.
(٣٦) د. وليد العناتي، المرجع نفسه ص١٢.

(٣٧) فاضل كريم أحمد، تاريخ الفكر الكردي، ترجمة د. بندر علي مندلاوي، سليمانية ٢٠٠١ ص١٧.

(٣٨) عبد الوهاب الكيالي وكامل الزهيري، الموسوعة السياسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٤ص٤٢٧.

(٣٩) د. عبد الله أبو هيف، اللغة والاعلام واعتبارات إنتاج المعرفة، مجلة أفكار ٢٠٠٩/٢٤٧ عمان .

المبحث الثاني
(اللغة والهوية – المقدس الكردي)

- أنت كردي ولست عربي.. وعليك الاهتمام بهويتك. إنّ ما شاهدته من آثار، ما هو إلا من صنع أجدادك الأكراد الأيوبيين

(من حديث الأستاذ الأرناؤوطي
لتلميذه علي سيدو الكردي، وهو
يطوف به في مدينة القدس التي
كان يدرس فيها إبان عشرينيات
القرن الماضي)

إذا ما تأثرت اللغة الكردية بأي من هذه اللغات الثلاث: العربية أو الفارسية أو التركية، فذلك أمر طبيعي تماما، ليس بسبب علاقة الجوار بين هذه اللغات وبين الكردية فقط، وإنما بحكم الغلبة التي تحققت للأقوام الناطقة بهذه اللغات واحتلالها أراضي كردستان، بصرف النظر عن الكيفية التي

تحققت بها هذه الغلبة. إلا أن هذه اللغة وعلى الرغم من مرور عقود عديدة متواصلة بقي الناطقون بها مستلبو الارادة، لم تستطع أن تهزمها أو تفت في عضدها لغات القاهرين بالقوة والحيلة، الذين استنفدوا كل ما في حوزتهم من الأساليب الماكرة والجهنمية، التي حاولوا بواسطتها إما صهر الكرد، أو تغييب لغتهم كمثل ما تم تغييب تاريخهم، وعلى غرار ما حدث في بلدان عديدة في أمريكا الجنوبية وإفريقيا وآسيا، وحيث حلت اللغات الاسبانية والانجليزية والفرنسية، في أمكنة لغات اندثرت، أو هي لم يعد لها ذلك الانتشار الذي كان قبل الاستعمار. وتأثر الكردية هذا الذي يمتاز بالمحدودية وعدم المساس بالأساس اللغوي، لا يعني مطلقا بأن هذه اللغات قد أصبحت رئيسية فوق ألسنة الناس في كردستان، وإنما بقيت مجرد لغات ثانوية قلما يلم بها الكثيرون من الكرد. واللغة الكردية إنما بهذا الثبات، يقدم أصحابها الدليل على مسألتين في غاية الأهمية : فأما المسألة الاولى فإنهم وبعكس ما يقرره ابن خلدون عالم الاجتماع الشهير في مقدمته، من أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله، وأنهم بالتمسك بلغتهم أبقوها

الجدار الذي يحتمون به للمحافظة على هويتهم وشخصيتهم. وأما المسألة الثانية فإنه وبعكس ما قاله كذلك من أن لغات الأمصار إنما تكون بلسان المختطين لها، إلا إذا كان ابن خلدون يقصد القول بأن اللغة الكردية بقيت هي الغالبة في جغرافيا كردستان، التي يقطن فيها الكرد باعتبارها أرضهم وليست أرض أي من القوميات الأخرى المشار إليها بالقوميات القاهرة بالقوة، التي تقاسمت هذه الجغرافيا بالعدوان والظلم وبالمؤامرة الدولية جميعها معا [١]. وهذه الملاحظة الهامة هي نفسها التي لفتت انتباه فرست مرعي الكاتب الكردي فقال : إن احتفاظ الكرد بخصائصهم القومية وبلغتهم في ظل الاسلام وحضارته، لهو درس بليغ من التاريخ كان يجب أن يؤخذ في الاعتبار [٢]. ومما نعتقده في أسباب هذه الظاهرة أن عامل الأرض المشتركة، التي هي في غالبية مساحتها جبلية وعرة يصعب وصول الجيوش إليها والتحرك فيها بيسر وسهولة، بقي هو الأساس الذي تعاورت فيه اللغة مع الرغبة الداخلية القوية، في المحافظة على الوجود الكردي في إطاره المعشري الاجتماعي المتماسك. الذي يرفض مختلف أشكال التذويب والصهر من تتريك وتفريس

وتعريب حتى [٣]. صحيح أن الدول التي احتلت كردستان قد استطاعت أن تخضع المدن والقصبات لحكمها كما يقول البدليسي في كتابه (شاهنامه)، إلا أن أبناء الكرد في الجبال لم يخضعوا أبدا لأحد من المحتلين كما يقول الواقع، وبالتالي فإنهم لم يغيروا عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم القومية. أو في معنى آخر فإن تشبث الكرد بأرضهم،وبقائهم فيها وعدم مغادرتها، وعودتهم إليها سرا حتى في الحالات التي كانت تتم فيها عمليات ترحيلهم عنها قسرا [٤]، هو ما حافظ على وجودهم القومي الذي ضمن لهم المحافظة على لغتهم كذلك. وسوف يلاحظ الباحث هنا، بأن هذه اللغة ليست لغة جاليات متناثرة هنا وهناك بين الجبال أو في الوديان لكل منها لغة خاصة بها كما يحاول أعداء الكرد تصوير الأمر، حتى وإن كانت فيها لهجات، على اعتبار أن ما يذهب إليه علماء اللغة لا يقر بوجود تباينات بين هذه اللهجات في البنية والتركيب على وفق تقسيم جغرافي محدد أوأثني. ومن هنا فإن الكرمانجية على سبيل المثال بقيت هي نفسها تحمل ذات الاسم، وإن أصبحت منها الكرمانجية الشمالية والجنوبية، وسواها مما يتوقف أمامها ذوو الاختصاص في

اللغـات [٥]، والجـامع الـذي يـربط هـذه اللهجـات ببعضـها أقوى من أن يفرقها سبب ما، وهذا واحد مـن أسـباب عديـدة جعلتهـا عصـية علـى المـوت والانـدثار، أو التقـاعس أمـام غيرهـا مـن اللغـات الدخيلة [٦].

إننا بالربط بين كل من اللغة والهوية، هذا الثنائي الذي لا يفرق بين شقيه أي عامل أو سبب، والنظر إليه باعتباره أمرا مقدسا عند الكرد، لم نأت بالأمر اعتباطا أو بلا مبرر واقعي. وفي أغلب الظن فإن ما كان متوقعا حدوثه بسبب متوالية الحروب التي شنها الآخـرون علـى الكـرد، فـي حالتيهـا المعلنـة غالبـا والمستترة أحيانا، لم يحدث بسبب ما هي عليه حال البنيـة الذهنيـة الكرديـة، التـي بقيـت تـرى فـي اللغـة، حتى وإن كانت شفاهية تتناقلها الألسن جيلا عن جيل ولأسباب قاهرة مفروضـة علـى الكرد، الجدار الذي يعنـي انهيـاره سـحق الشخصـية الكرديـة، والقضـاء علـى مختلـف العناصـر التـي تسـاهم فـي بلورتهـا والمحافظة عليها، كاللغة والعادات والتقاليد والأحلام المتشابهة والشعور بوحدة المصير، وسوى ذلك من مكونات الوجدان والثقافة المشتركة التي يتم تناقلها عبر السنين، وفي مختلف مناطق كردستان، مدينية

كانت وحضرية، أم في القرى والمناطق النائية. ولعله مما يجدر الانتباه إليه، أن الكرد حتى في الأزمنة التي كان الاقطاع فيها هو الذي يحرك حياتهم، حافظوا على لغتهم بسبب حرص هذا الاقطاع هو الآخر على المحافظة عليها، وهي صفة يختلف بها هذا الاقطاع عن سواه من أشكال الاقطاع، عند الأقوام الأخرى من غير الكرد، ممن عرفت مراحل الاقطاع المتسلط [٧]. إنه الاقطاع الذي تغلب عليه النظرة النيرة للغة، ودورها في المحافظة على روح العشيرة الكردية، التي وإن كان عندها الاستعداد ربما لمحاربة عشيرة كردية أخرى لأسباب اقتصادية بحتة، بقيت تحافظ على لغتها التي وجدت فيها سببا للتوحد أمام الخصوم من القوميات المجاورة الغازية لأرضهم، والتي بقي الكرد يرون فيها قوميات غير صديقة، أو معادية في الغالب، تحاول أن تفرض لغاتها على ألسنتهم حتى في أرضهم التي لم يخرجوا منها ويتركوها لسواهم من الطامعين بها. وبمعنى آخر فإن قادة الكرد السياسيين، وكذلك القادة العشائريون، وعلى امتداد سنوات نضالهم وقيادتهم لشعبهم، بقوا ينظرون إلى اللغة باعتبارها قوة كبيرة من القوى التي تقوم عليها

عملية التنشئة الاجتماعية، ولربما تعمق هذا الإيمان وازدادت وتيرته، بعد ما رأوها من محاولات خصومهم التي كانوا يهدفون من ورائها إلى إقصاء لغة الكرد ونفيها من الوجود تماما، وبالذات عبر برامج التعليم في المدارس[٨]. وثمة أكثر من إشارة إلى أن أولئك القادة، وبضمنهم زعماء العشائر أيضا، كانوا يحرصون على تعليم أبنائهم لغتهم الأم – الكردية، مستخدمين في ذلك طرقا مختلفة وأحيانا مستترة.

لقد كان واضحا لهؤلاء ومنذ زمن بعيد، أن من بين اولى العقبات وأخطرها التي يجب تخطيها من أجل التأسيس لهوية قومية، تلك التي تتمثل في عدم وجود لغة قومية مشتركة، معيارية ويمكنها أن تجمع حتى أشتات الأمة المتناثرة هنا وهناك[٩]. وهنا نأخذ عن اللغوي والأنثروبولوجي إدوارد سابير قوله في اللغة: وحسب الحقيقة الواضحة، فإن العلاقات الاجتماعية المهمة لا يمكن لها أن تكون واقعا من دون لغة إلا بصعوبة كبيرة. إن وجود كلام مشترك، يؤدي وظيفة رمز فعال على نحو مميز للتضامن الاجتماعي، عند أولئك الذين يتكلمونها[١٠].

وهنا من حقنا التساؤل حول نظرة الكردي الذي في العراق مثلا، فردا كان أو جماعة إلى هويته ؟ وهذا واحد من أسئلة عديدة يطرحها الدكتور سعد بشير إسكندر هو الآخر في كتابه الذي يحمل عنوان (عن الدولة الحديثة والأمة والنزعة القومية)[١١]، فهل يعتبرها هوية عراقية أم كردية أم الاثنتين معا ؟ وثمة أيضا مما يمكن أن نسأله : ما هي مصادر الذاكرة التاريخية عند هذا الفرد الكردي، وهل لهذه الذاكرة قواسم مشتركة مع ذاكرة الفرد العربي في العراق كما يوحي حنا بطاطو عالم الاجتماع الشهير، الذي كتب الكثير حول المجتمع العراقي، ونال استحسان الكثيرين من القراء. ومن أسئلة إسكندر الأخرى والمهمة : هل انتماء الفرد الكردي إلى العراق كدولة ومجتمع تغلب (بتشديد اللام) في نهاية المطاف على ولائه الأثني، وهل يشعر بالانتماء إلى وطن متعدد الأثنيات والثقافات، وبالولاء إلى دولة تمثل مصالحها كافة الجماعات المتواجدة في البلد؟[١٢]

وفي الوقت الذي يأخذ فيه إسكندر على بطاطو استخدامه منهجا أفقيا يتصف كما يقول بضيق الأفق ومحدودية النظرة والتعسف حتى في التحليل، فإنه

يرى بأنه سوى ذلك يتناسى الخصوصيات التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية للكرد، وهذه أمور ينبغي على المؤرخ والباحث الاجتماعي الجاد عدم صرف النظر عنها لأهميتها. ولعل احتفاظ الكرد بلغتهم، وبخصائصهم القومية في ظل الاسلام وحضارته في مراحل الدولة الاسلامية الاولى، واحتفاظهم بها لاحقا، لهو درس بليغ كما قال الدكتور فرست مرعي وسبقت الاشارة إليه، ويجب عدم إغفال النظر إليه . ولو افترضنا أن الاجابة على الأسئلة السابقة سوف تتم بالايجاب، فإنه مما ينفي صحتها، محافظة الكرد على لغتهم الكردية، وعلى عاداتهم وطقوسهم جميعها معا. بل وإنه مما يؤكد فرضية الاجابة بالنفي، أن دخول الكرد في الاسلام، ربما أشعرهم بكينونتهم كجماعة متميزة بلغتها وتراثها ضمن الجماعة الاسلامية(١٣). وهكذا فإنه من الصواب القول بأنه على الرغم من أن الكرد قد رحبوا بالعربية بوصفها لغة القرآن، وأداة الروح والتقوى من الله سبحانه وتعالى، إلا أنهم وعلماؤهم لم يروا أي تعارض بين إيمانهم بالاسلام وإخلاصهم للغة قومهم(١٤). ولربما يرى البعض أن هذا السلوك في المحافظة على اللغة الكردية وعدم

الاقدام على تعلم العربية من قبل عامة الكرد،يعدّ أمرا غير مقبول على اعتبار أن العربية هي لغة النص الديني المقدس، وأنها لغة العبادة – الصلاة على وجه التحديد، إلا أنه موقف لا يحالفه الصواب، وإلا فلماذا أغلبنا ممن نباهي بلغتنا وهويتنا العربيتين ننظر بازدراء إلى المبدعين العرب الذين يكتبون بلغات أجنبية، وننعتهم بمزدوجي الهوية أو المتفرنسين والمتنجلزين ؟ ومثل هذا أيضا، لماذا كان ابن خلدون يرى بأن اللسان العربي قد فسدت ملكته وتغيّر إعرابه، بسبب الاحتكاك بغيره من ألسنة الأقوام التي دخلت في الاسلام ؟ إنه حينما يقول بأن فساد هذا اللسان إنما وقع بسبب مخالطة اللغات الأخرى وإن كان قد بقي في الدلالات على أصله، إنما يمنح الكرد الحق في المحافظة على لسانهم ولغتهم، وهو ما يجب أن نأخذه على محمل الجد فلا نرفضه لأي سبب(١٥).

الكثيرون سمعوا بمرض الأنوميا الذي هو شكل من فقدان الذاكرة عند الانسان، يؤدي به عادة إلى نسيان هويته الخاصة. والهوية مفهوم ذو دلالة لغوية وفلسفية واجتماعية وثقافية. ولفظ الهوية مشتق من أصل لاتيني ويعني "الشيء نفسه "، كما يتضمن

مفهوم الهوية الاحساس بالانتماء القومي والدين والأثنية[١٦]. ولما كانت اللغة هي الأساس الصلد الذي تقوم عليه قصة الأمة بحسب أندرسون، فإنها التي تقوم عليها الهوية أيضا. وهذا يؤكد بأنها ليست مجرد أبنية وأنماط صوتية، وإنما هي أكبر من هذا التحديد كله. ثم إنها من جانب آخر دليل واضح على فاعلية الانسان في الواقع، وعليها يتوقف استمرار وجود الجماعة البشرية كنظام معشري متجانس، وعند فقدانها فإن التفتت هو ما سيؤول إليه حال هذه الجماعة، التي ستفقد بالتالي سندها الشرعي الذي يبرر القول بوجود هوية خاصة بها. ومما يلاحظه الباحثون في علم اجتماع اللغة، أن الأمثلة المشينة التي يرغم (برفع الياء وفتح الغين) فيها الناس على نحو مباشر على التخلي عن لغتهم، تشكل الاستثناء وليس القاعدة، وعادة ما كانت نتائجها تاريخيا تقوي عزمهم على التمسك بها[١٧].

في يوم شتائي بارد من ثمانينيات القرن الماضي، وكان المطر ينهمر بغزارة على مدينة خانقين ذات الغالبية الكردية[١٨]، فتكاد ملامح البساتين بنخيلها الشاهق، تضيع تحت موجات متتالية من مياه السماء التي جعلت سيقاننا تغوص في بحر من الطين، قبل

أن نجد جسدينا اللذين هدهما الإعياء من مغالبة المطر المتساقط بالجريان السريع، أمام بوابة البستان الخشبية التي يبدو عليها الهرم بسبب الإيغال في الماضي البعيد، وحيث قال شقيق زوجتي (العسكري برتبة ملازم آنذاك)، أننا سوف نقضي وقتا ممتعا مع أحد المزارعين، الذين يحولون عادة غرف الحراسة التي ينامون فيها إلى مجامر من نار لا تتوقف عن إطلاقها زفيرا متواصلا، وحرارة تحوّل شتاءات البساتين إلى أزمنة تتعانق فيها رومانسياتنا مع أحاديث لم نكن نشعر خلالها بأي ملل. حينما سقطت نظرات الرجل عليّ، أعني نظرات أبي إياد، وكانت تلك أول مرة يراني فيها، توقف لسانه عن الحركة، وران صمت خلته طويلا وصعبا علينا كلينا : أنا وهو في الأوان ذاته، ثم سأل شقيق زوجتي بالكردية عمن أكون، وهل أنا عربي أم كردي لا يتقن ربما التكلم باللغة الكردية ؟ لربما اعترى الرجل الضيق حينما عرف حقيقتي، ولكنه سرعان ما انفرجت أساريره بمجرد أن طمأنه شقيق الزوجة فقال : صحيح أنه موظف في الدولة، لكنه ليس من رجالاتها، ثم إنه نسيب وليس غريب، فاطمئن وتكلم كما تريد..

إن الكردي بالقبض على كرديته وعدم التخلي عنها، كمثل القابض على الجمر، يعرف صعوبة التصريح بجنسية لسانه[١٩]، لكنه وإن كان يستتر وراء لغة أخرى مضطرا في بعض الأوقات، لا يتنازل عن لغة أمه التي تهدهده بها عادة وهو في المهد رضيعا، وهو إنما يحتمي بها كمثل ما يفعل ذلك المزارع،على اعتبار أنها الأرض التي يزرع فيها أحلامه وتطلعاته في الحياة. إن اللغة التي جمعت كلا من شقيق زوجتي وذلك المزارع، هي قبل غيرها ما جعلتهما يشعران بالانتماء إلى أمة ليست هي نفسها الأمة التي أنتمي إليها. ومن هنا تتحدد إجاباتنا على الأسئلة السابقة حول أي الانتماءات أقرب إلى نفسية الكردي : العراقية في إطارها العام أم الكردية ؟

إن الهوية مفهوم دلالي واضح وثابت. وفي معنى آخر، فإنها كمفردة لا تنتقل من مدلول إلى آخر سواه. وهكذا فإن ذلك المزارع الذي كان يحرص على التمسك بهويته الكردية بالتحدث بلغته وليس بالعربية التي يتقنها، إلا إذا كان يريد إيصال أمر بعينه لي، إنما كان هو الآخر يقدم الاجابة على أسئلة الدكتور سعد بشير إسكندر. وهي إجابة تمتاز

بالإيجاز والبلاغة منقطعة النظير وإن لم يكن يخطط لذلك، بيد أنها العفوية التي يجب عدم صرف النظر عنها لأهميتها في إصدار الحكم حول هذه المسألة تحديدا. إن حال هذا الكردي مع اللغة العربية، كمثل حال غير العربي الذي يجد نفسه أمام الإسلام ولم يعد ثمة من مخرج له سوى أن يعلن إسلامه. صحيح أن الإسلام دعوة جامعة إلى البشرية جمعاء، وقد اختص الله العرب بنزوله في جزيرتهم وبلغتهم، ولما أسلم أعاجم من الفرس والروم والأحباش وسواهم، وكانت العربية لغة القرآن والدين الجديد، أصبح مفروضا على هؤلاء فرضا ضمنيا أن يتعلموا العربية ليؤدو بها عباداتهم، وليتمكنوا من التواصل مع مصادره الشرعية والمعرفية[٢٠]، إلا أنه ومع كل ما بذله هؤلاء من طاقة وجهد في تحصيل العربية، بقي تحصيلهم قاصرا بحكم ما استحكم فيهم من عادات لغوية تحصلت لديهم بالاكتساب[٢١]. ومعنى هذا فإن ذلك المزارع في لكنته التي فيها لحن وزوغ عن لكنة ابن العرب الذي يتحدث بلغته، ستبدو متساوقة مع المنطق الذي يقول بأن كل صاحب لغة إذا ما تعلم لغة أخرى، فلا بد أن تتمايز لكنته عند التحدث بها عن لكنة ابن اللغة

الأصلي. إنه الاختلاف الذي يتطابق مع واحدة من السنن الكونية : ومن آياته اختلاف ألسنتكم وألوانكم. وهو أيضا التساوق المنطقي، لأن التباين حتى في إطار اللغة الواحدة، من حيث الصيغ الصوتية والصرفية والمعجمية والدلالية والنحوية والأسلوبية، واستراتيجيات الخطاب، والسياقات التداولية للعلامة اللغوية، يمثل ظاهرة لغوية عامة، ويعبر عن التنوع الثقافي الاجتماعي في المجتمع اللغوي الواحد(٢٢).

بدون اللغة القومية الجامعة، التي هي كمثل اللغة التي جمعت ذلك المزارع وشقيق زوجتي، لا وجود لهوية قومية. وإلى صحة هذا التصور يرى جون جوزيف في كتابه (اللغة والهوية) أن بروز اللغة الألمانية إلى الوجود يعود إلى مارتن لوثر كنج (١٤٨٣- ١٥٤١) الذي سعى من خلال ترجمته للكتاب المقدس، إلى خلق شكل من اللغة الألمانية تمكّن من توحيد العديد من المجموعات ذات اللهجات المتعددة، عبر ما اعتبرت إلى حدود أواخر القرن التاسع عشر، خليطا من دول صغيرة وكبيرة(٢٣).بيد أن مثال مارتن لوثر لا ينطبق على حالة الكرد، إذ ونحن نتناول أمر اللغة والهوية عندهم، فإنما ليس من منظور التحدث عن أمة

محتملة الظهور أو هي في طور التكوين، وذلك لأن هذه الأمة لها جذورها الضاربة في أعماق التاريخ[٢٤]، وهي أمة لها وجود واقعي بدلالات عديدة منها التفكير المشترك، والهم المشترك، والثقافة الواحدة، والعادات والتقاليد الواحدة، ومثل هذا كله اللغة المشتركة، التي حافظت عليها مشافهاتهم التي لم تتوقف، فنقلوها جيل عن جيل، حتى وصلت إلى الكرد الحاليين، أحفاد الميديين القدماء كما يرى مؤرخوهم. أي إنه الحسّ الجماعي الذي أوجد اللغة والهوية كلتيهما معا. ولربما يقول البعض بأنه ثمة لهجات بين الكرد متباينة، وأنه ليس ثمة هناك لغة معيارية تجمع الكردي الذي في الجزء الكردي من تركيا، مع الكردي الذي في الجزء الكردي من العراق أوإيران، وهذا فيه قدر من الصحة، إلا أن هذه التنوعات اللغوية في المجتمع الواحد وبحسب اللسانيات الاجتماعية، تعدّ أمرا طبيعيا، ولها أسبابها التي منها الهجرات السكانية، ودوافع التجارة والصناعة، والتبادل الثقافي والغزو العسكري[٢٥]. ومما له أهميته في هذا الميدان، التنبيه إلى العلاقة المتبادلة بين كل من مناهج الدرس اللساني ومناهج الدرس الاجتماعي، والتي بسببها

نشأ علم اللسانيات الاجتماعية، الذي وكما يشير اسمه، يقوم على دراسة اللغة في إطارها الاجتماعي، من أجل التوصل إلى ضوابط تحكم العلاقة كما يقول الناقد العناتي بين الوظائف اللغوية والوظائف الاجتماعية، وكيفية عكس البنية اللغوية للبنية الاجتماعية وعلى وفق متغيراتها المتعددة، كالمستوى الاجتماعي والجنس والعمر والموطن وغيرها من المتغيرات.

ما دام في الأمر ما يفيد هذه الدراسة، فلن نتوقف عن الاشارة إلى مثال المزارع الكردي، ما دامت هذه الاشارة تحمل فائدة وتبين حقيقة ينبغي عدم صرف النظر عنها لأي سبب، بل والتوسل بكل ما يلزم لإظهارها والانتصار لها. وهو مثال على الرغم من ظاهره الفردي المحدود، يمكن أن يكون مقياسا، لأن حال هذا المزارع كمثل حال ملايين الكرد، ممن تعلموا الكردية بالفطرة ورضعوها مع حليب أمهاتهم، في زمن كان يحرم عليهم تعلمها حتى في المدارس التي كانوا يذهبون إليها[٢٦].

لقد شكلت معرفة الكرد بلغتهم أهم ركيزة يمكنهم الاتكاء عليها لتحصين الهوية والذات والشخصية جميعها معا. وإن دفاعهم عنها، بمعنى السعي

لتعلمها بالفطرة في منازلهم وبشكل يخرجون فيه على رغبات الأنظمة السياسية التي كانت تأمرهم بعدم استخدام لغتهم الأصلية، إنما من أجل أن يضمنوا لأنفسهم البقاء كأمة على قيد الحياة، لها هويتها التي تختلف عما عند الآخرين من الهويات. هنا وإلى مثال أهمية اللغة في حياة الأمة والمحافظة على هويتها، نشير إلى ما يأخذه جون جوزيف عن هوتون : إن سياسات هتلر الاضطهادية وإبادته لليهود في نهاية المطاف[٢٧]، كانت مبنية أساسا على مسوغ يفيد بأنه على الرغم من كون لغتهم الييدية – اليديشية – لغة يهود أوروبا كانت شكلا من أشكال اللغة الألمانية، فقد كانت لهم خصوصية عرقية غير معقولة لا تسمح لهم بامتلاك لغة أم، وبالتالي فإنهم لم ينتموا إلى الجهاز السياسي الألماني، وإنما كانوا داخله عالة عليه[٢٨].

وخلاصة القول بأن ذلك المزارع حتى لو لم يكن قد ذهب إلى المدرسة، حيث يمكن أن تتم عملية تهذيب طريقته في التفكير، ولم يكن قد اشتغل في السياسة، كان يشعر وهو في شعوره يلتقي مع شعور كردي جماعي أوسع وأكبر، بأن مدينة خانقين التي هو من سكانها الأصليين، كانت تواجه شأن كثير من

الأمكنة الكردية ليس في العراق وحده، وإنما في سواه من البلدان[٢٩]، عملية تعريب تشمل المكان والانسان كليهما معا [٣٠]. إنها الحياة في مرارتها اللاذعة، وفي محاولة خلق واقع لغوي جديد، هما ما كان يواجههما، فاعتقد في البدء أنني أداة ممن يحاولون قتل لغته فوق لسانه. ولكنه ما إن شعر بالطمأنينة، وأنني لست من عمال الغالب بالقوة الذين يسوطون الناس بقسوة، انفرجت أساريره، فأدركت أن اللغة تزداد صمودا في وجه أندادها كلما ازداد الضغط عليها، تماما كالشجرة التي تلطمها الرياح من كل الجهات، سرعان ما تتحول جذورها إلى أوتاد، فتزيدها قوة في الأرض وثباتا.

ومما نود الاشارة إليه هنا، نظرا لما له من دلالات واسعة، أن أي شكل من أشكال احتلال النفوس الذي يصاحب عملية احتلال الأرض عادة، لم يتعرض إليه الكرد. وهم في الوقت الذي لم يظهر عليهم فيه ما يشير إلى الرغبة في التمثل بالآخر الغالب بالقوة والحيلة، لم يقبلوا التنازل عن تمسكهم بلغتهم، التي يعدونها في مكان الروح التي إذا انتزعت من جسم الكائن الحي مات ونفق. وهم في هذا إنما كانوا يحرصون على أن يحافظوا على

اللحمة التاريخية التي جمعت اللغة بالقومية، وجمعت الاثنتين معا بالهوية أيضا. صحيح أنه لربما بقيت اللغة الكردية سنوات طويلة محكية وغير مكتوبة، أو إنها لم تكن مما يدرسه التلاميذ في المدارس، إلا أن اللغات الأخرى المشار إليها سابقا، لم تستطع مزاحمتها على الجغرافيا التي هي موطنها وليست موطن هذه اللغات الوافدة، وهذا مما يفيد بأنها إحدى اللغات التي لم يفت في عضدها استعمار أو احتلال، وهي في هذا تكون كمثل غيرها من اللغات، التي لم تستطع اللغة العربية إقصاءها من الحياة، على رغم دخول الأقوام الناطقة بها في الاسلام، كاللغة الفارسية في إيران، والبشتو في أفغانستان، وسواهما من لغات البربر وأندونيسيا والباكستان والهند وتركيا، تماما وكمثل العربية ذاتها لاحقا، لم تستطع أن تهزمها محاولات الفرنسة والنجلزة، تحديدا في بلدان الشمال الافريقي العربية، وفي تلك التي كانت تحت الانتداب البريطاني.

إنها في استمراريتها فوق الألسن الناطقة بها، على الرغم من ويلات الحروب التي واجهها الكرد ونتائجها المريرة، تستحق أن توصف باللغة الطود العظيم. صحيح أننا يعوزنا التصور الدقيق لتاريخها

ولمختلف ما أصابها خلال عمرها، إلا أنها تبقى واحدة من اللغات القديمة، التي لم تصادف أيا من حالات التوقف والإقصاء إلى الظلال المعتمة، في منأى عن التداول بين الناطقين بها.

صحيح أن للغة الكوردية صلة بعيدة باللغة الفارسية باعتبارهما تنتميان إلى مجموعة اللغات الهندو – أوروبية، إلا أنهما تختلفان فيما بينهما في نواح عديدة، سواء في المفردات أو النحو والصرف أو في النطق، فاللغة الكوردية كما أكد سدني سميث، لغة مستقلة تمام الاستقلال لها تطوراتها التاريخية الحقيقية، وهي لغة آرية ممتازة منذ القدم إلى يومنا هذا في جبال كردستان [٣١]. إنها بعكس العبرية مثلا، التي ظهرت كما تشير بعض الكتابات قبل ميلاد المسيح، غابت عن الوجود ولم يعد لها مكان إلا في الكنس ودور العبادة اليهودية. لقد بقيت الكردية في مكانتها فوق الألسن ولم تعرف أيا من مراحل السبات التي مرت بها العبرية، التي لا ينفي ابن يهودا وجود دوافع سياسية وقومية حفزته لإحيائها. هنا وعلى سبيل المقايسة، فإذا كانت العبرية بحاجة إلى زمن طويل تعود بدايته إلى القرن الثامن عشر، لكي يدرك القائمون على

شؤونها أهمية اللغة كما يرد على لسان ابن يهودا، فإن الكرد وفي مختلف مستوياتهم الثقافية، بدلالة عدم توقفهم عن استخدام لغتهم في حياتهم، ظلوا يمتلكون وعيا قويا بأهمية اللغة في تقرير وجود الانسان، ومن هنا نلاحظ رفضهم الهيمنة عليهم عن طريق لغة أخرى، عدا رفض احتلال أرضهم، ودفاعهم عن هذه اللغة التي عن طريقها يبقون سادة أنفسهم. وبمعنى يوضح هذا الأمر، فإن فعالية المقاومة اللغوية، وهي حدث اجتماعي أيضا، إنما لها ارتباط متين بقدرة الانسان الكردي على تطوير وعيه بالهيمنة وأشكالها، وبأساليب مقاومتها، وبضمن ذلك هيمنة لغة أخرى على لغة قومه، الذي يعيش فيها وتعيش فوق ألسنة أهله. وهذا مما حال دون الآخرين والقدرة على إحكام سيطرتهم على الكردي ليس في العراق وحده، وإنما في كل من إيران وتركيا وسوريا كذلك. يقول فانديك : وتكون الهيمنة الأيديولوجية كاملة، حينما لا تملك الجماعات المهيمن عليها القدرة على التمييز بين مصالحها ومواقفها الخاصة بها، ومصالح ومواقف الجماعات المهيمنة[٣٢].

إننا إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار بأن سلوك ذلك المزارع الكردي لا يعدّ استثنائيا، وأن الاستثنائي إنما يتمثل بمن يقدم الانحناءة لسارق الأرض منه، فإن الكرد بصورة عامة، وكمثل ذلك المزارع، يحاولون دوما الاحتماء بلغتهم حتى أمام أقرانهم من أصحاب اللغات والقوميات الأخرى، الذين هم الآخرون لا بدّ سيحتمون بلغاتهم إذا ما اقتضت الضرورة ذلك. ومما يمكننا استنتاجه هنا، أن اللغة – أية لغة ترهص دوما بنظام اجتماعي وسياسي وثقافي، لا بدّ أن يكون مختلفا عما حوله من الأنظمة، وله خصائص ومميزات ربما لا نراها في غيره من الأنظمة المحيطة، ومن هنا كانت حيطة ذلك المزارع الذي ما إن اطمأن بأن العربي الذي حل عليه زائرا في بستانه، لا يهدد وجوده المعنوي قبل أي وجود مادي آخر له في هذه الحياة، بدأ التحدث في بحبوحة من الارتياح والزهو، وهو يقدم لنا كأسين من الشاي الذي يستخدم الكرد ما يسمونه " السماور "[٣٣] في إعداده، بعد أن يكونوا قد طيبوه بالدارسين (القرفة في بلاد الشام) ذي الطعم اللذيذ والرائحة النفاذة.

هنـا مـن واجـب الكـردي التسـاؤل حـول أخطـر الأزمـات التـي يواجههـا، وعلـى غـرار تلـك الأسـئلة التـي سـبقت الاشـارة إليهـا. وهـو كمـا نفهمـه تسـاؤل الباحث عن الذات ومكانها في هذا العالم. وبالطبع فإنه من المستحيل أن يحدد الكردي هويته المنشودة، في منأى عن وجود لغة جامعة. فأي الكرمانجيتين على سبيل المثال سيختار : الكرمانجية الشمالية أم الجنوبية ؟ أم أن اللهجة اللورية في مقدورها الإيفاء بالغرض ؟ ولربما يطل لغوي كردي يقرر بأن لهجة الزازا هي الأفضل من سواها من لهجات الكرد، وقد لا يقبل بهذا الاختيار لغوي آخر يفضل استخدام السورانية لهجة السليمانية ونواحيها. لسنا هنا بصدد تحديد إجابة قاطعة ودقيقة، وثمة هناك من يدعو لاستخدام الحرف اللاتيني في الكتابة، وآخر سواه قد يفضل استخدام الحرف العربي(٣٤). وهكذا فإن الكرد إنما يمرون بمرحلة ينتقلون فيها من وضعهم كضحايا مسلوبي الإرادة، إلى أخرى عليهم فيها إبراز هويتهم بوضوح كامل.

وعندما تحدث إدوارد سعيد حول أزمة العرب الأساسية ورأى أنها لا توجد في اللغة بقدر وجودها في هوية هذه اللغة، وأن العرب إنما يعبّرون عن

أنفسهم بلغة الآخر بعد أن انتزع الله منهم لغتهم وجعلها لغة القرآن – النص الديني المقدس، فإنما لأنه أراد الوصول إلى حكم مفاده : إن الانسان تاريخ، ويحتاج في التعبير عن نفسه إلى لغة تتطور[٣٥]. بمعنى، فإن الكرد إنما هم بحاجة إلى اللغة التي تكشفهم لأنفسهم جميعهم بلا إقصاء، أولئك الذين في تركيا، والآخرون الذين في إيران وسوريا، وتتلاءم مع حاجاتهم وضرورات حياتهم، وتكون أخيرا لغة معيارية يستقر وجدانهم الجماعي حولها. وكما سبق القول، فإنه على الكردي لكي يحقق تطوره اللغوي والاجتماعي وما يصاحبهما عادة من أشكال هذا التطور، عدم مقارنة نفسه بالغرب أو بسواه، ذلك لأنه ليس ثمة جدوى حقيقية من هذه المقارنة، وهي غالبا ما تؤدي بصاحبها إلى الهاوية من الانفصام عن التاريخ الكردي، والتأخر بالتالي عن مواكبة العصر وتطوراته. وأما مسألة اللهجات، والتباين في إطار اللغة الواحدة، فإنه أمر طبيعي بحسب إشارة سابقة، وكحالة للمقايسة، فقد مضى العرب في جاهليتهم يتوسلون العربية أداة للتواصل والتفاهم فيما بينهم، صادرين عن وعي وإحساس باتفاق جامع على أنموذج لغوي واحد، صادفين عن

الفروقات الشكلية والسمات اللهجية الفارقة، التي كانت تتراءى أحيانا في مستوى الأداء النطقي[٣٦].

وإذا كانت الكلمات كائنات تحيا بالشعر كما يذهب إلى ذلك الشاعر شيلي. فإن استخدام الشعراء المتكرر للكلمات هو الذي يحول دون تحول اللغة مع الزمن إلى أداة عاجزة في تعبيرها عن الأغراض الانسانية النبيلة[٣٧]. إنه مما يحافظ على اللغة، ويجدد شبابها باستمرار، دوامها فوق الألسن، ومصاحبة التطورات الاجتماعية، التي لا تنفك تحمل الجديد في كل لحظة، تأتي في أعقاب لحظة سبقتها، يقول المنطق بأنها لن تعود بتاتا.

إن القول باجتماعية اللغة، إنما يعني ضمنا أنها تدور على ألسنة أفراد بأعينهم يجمعهم انتماء اجتماعي وجغرافي[٣٨]. ومن السيرورة فيها انفعالها بالقوم الذين يتداولونها على ألسنتهم وفي معاملاتهم الحياتية. أي أنها في علاقة مع المجتمع متبادلة وذات اتجاهين، فهي تؤثر في هذا المجتمع، وتتأثر به كذلك. وحينما أطلت المدرسة التحويلية التي جاء بها تشومسكي وتجاوزت البعد الاجتماعي للغة، قيلت كما يوضح الدكتور العناتي أهم الانتقادات بحقها. ومن هنا يجمع علماء الاجتماع واللغة كل

واحد منهم بطريقته، على أنه ليس هناك تاريخ للغة – أية لغة يمكن النظر إليه ودراسته بمعزل عن دراسة الحياة الاجتماعية. وفي حدود هذا المبحث أيضا، فإن العلاقة اللغوية بين الناطقين بلغة واحدة، تجسد العلاقات الاجتماعية بينهم. وضمن هذا التصور، فإن الهوية الاجتماعية حاضرة في اللغة ذاتها. وإذا كانت الهوية تهتم بالتماثل " الأصل الايتمولوجي"، أي بكون المرء أفغانيا أو مسيحيا لتربطه بأفغان أو بمسيحيين آخرين، بحيث يكونون فئة من الناس ذوي هوية أفغانية أو مسيحية دينيا، فإنه من واجب الكرد البحث في ملامح الهوية التي توحّدهم هي الأخرى، حالهم في هذا كمثل حال غيرهم من الأقوام، بصرف النظر عن المؤامرات التي حيكت ضدهم وما تزال تحاك، وهذا فعل في تحقيق الوجود الفاعل وغير الهامشي في الحياة البشرية.

الهوامش

=====

(١) لقد أثرت اللغتان التركية والعربية على البنية النحوية للغة الكردية، ولكن بشكل غير فعال، فكلا العنصرين يتميزان بصورة واضحة عن العنصر الكردي الحقيقي. أنظر : ليرخ، دراسات حول الأكراد وأسلافهم الخالدين، ترجمة د. عبدي حاجي، مكتبة حلب، ١٩٩٣، ص٣٤.

ويقول ديرك كينن في كتابه (الكرد وكردستان) : ومع كون اللغة الكردية تتصل بالفارسية، إلا أنها تمتلك القواعد اللغوية الفارقية مع التراكيب والمفردات الخاصة بها، ص١٧.

(٢) د. فرست مرعي، الدور التاريخي للكرد، مجلة سردم العربي،١٧-٢٠٠٧،١٨، سليمانية.

(٣) نقرأ في كتاب (صورة العرب في الأدب الفارسي الحديث) ما يلي : وقد سعى النظام البهلوي إلى تغيير الهوية الأثنية للشعوب غير الفارسية في إيران، جاعلا إياها جزءا من الأمة الإيرانية الحديثة جمعتها اللغة والثقافة الفارسيتان. وانحصر استخدام اللغة الفارسية، اللغة الرسمية لإيران في الحكومة ووسائل الاعلام، وللغاية ذاتها وضع التعليم تحت وصاية الحكومة، كما تمت مراقبته

وعلمنته، ومن بين أهداف التعليم كان تهييج المشاعر القومية الإيرانية وتفريس إيران، وقد فرضت اللغة الفارسية بوصفها اللغة الرسمية للتدريس... ص٢٤-٢٥.

ونقرأ في كتاب (عن الدولة الحديثة والأمة والنزعة القومية) ما يلي : فيما يخص العراق، عكس إعطاء الحصري أهمية كبيرة للغة والتاريخ كعاملين أساسيين مكونين للأمة، رغبته في استخدامهما كأداة تبرر تعريب أثني وفكري لمجتمع متعدد الأثنيات والثقافة.. ص ٧٢.

ونقرأ في كتاب (الكرد وكردستان) ما يلي : فاستعمال اللغة الكردية في التعليم في ما عدا العراق، يعتبر في كردستان من الأمور الخارجة عن صلب الموضوع، إذ أن الحكومتين التركية والإيرانية دأبتا على التحكم في فرض ثقافتيهما على الكرد... ص١٨.

(٤) حدث في النصف الثاني من تسعينيات القرن الماضي، أن تم ترحيل أعداد كبيرة من كرد خانقين وضواحيها، إلى بلدات الفلوجة والرمادي والحلة والناصرية في غرب ووسط وجنوب العراق، وبضمنهم أقارب من عشيرة زوجتي المسماة عشيرة الجمور، لكن شقيقتها الأرملة سرعان ما غادرت الفلوجة سرا، وسكنت في محلة باب الشيخ في وسط بغداد، حيث يمكن أن تغيّب نفسها وعائلتها عن العيون في هذه المحلة الشعبية المزدحمة، وهي المحلة التي تقع على مقربة من جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني الشهير، الذي له في أوساط الكرد مكانة المتصوف الكبير، وتحت ذريعتين : واحدة أنها لا

تحتمل العيش في مكان لا تعرف فيه كردا تتكلم معهم بلغتها التي لا تتقن سواها، وقد وجدت منهم الكثيرين في هذه المحلة، والثانية أن هذه المحلة على مقربة من كراج السيارات الذاهبة إلى خانقين والقادمة منها، وكأنها بذلك إنما أرادت متابعة أخبار مدينتها. وحتى في هذا المكان فإن السيدة فهيمة لم تحتمل العيش، وسرعان ما عادت بشكل سري كذلك، لتسكن في خانقين في محلة أخرى غير محلة المزرعة التي فيها بيتها الذي طردت منه، وإن لم تسلم فأعيد ترحيلها، وبقيت هكذا إلى عام ٢٠٠٣، حينما عادت إلى بيتها، لكن بدون بصر أو قدرة على السمع في هذه المرة، فأصيبت بجلطة في الدماغ في داخل بيتها الذي لم تشعر بحلاوة العودة إليه، وما تزال حتى اليوم تحيا عمياء صماء ومشلولة عن الحركة. إنها إحدى صور عذابات الكرد المتنوعة (المؤلف).

(٥) اللهجات الكردية الأساسية هي : لهجة الزازا في الشمال، ولهجة الكرمانجي
في الوسط والجنوب، وأخيرا هناك اللهجة الكورانية الشائعة في منطقة كرمنشاه من كردستان التي تحت السيطرة الإيرانية.

(٦) في منطقة هامة تنتج السجاد وهي بيزار، يمتزج الكرد بالترك، ورغم

ذلك فإن اللغة الكردية تعتبر من الموروث الشفاهي الكردي، وبدونها لا تكتمل الهوية الكردية.. أنظر : ويليام إيغلتون، القبائل الكردية، ترجمة د. أحمد محمود خليل، مؤسسة موكرياني للطباعة، ٢٠٠٦، ص١٨.

(٧) يقول الدكتور هلكوت حكيم في المدخل إلى كتاب باسيل نيكيتين (الكرد – دراسة سوسيولوجية) : وقد بقي النظام الاقطاعي القائم على العشيرة زمنا طويلا في كردستان، وإذا كان هذا النظام عنصرا سلبيا في كيان المجتمع الكردي، فإنه حسب نيكيتين يعد واحدا من العوامل التي ساعدت في الحفاظ والبقاء على خصوصية هوية كردستان والكرد..ص٧٠.

ويقول البدليسي في كتابه (شرفنامه) : وفي مرحلة الاقطاعية المتطورة، وهي مرحلة انفصال الحرفة عن الزراعة ونمو المدن والقصبات والبلدات في كردستان، تكونت القومية الكردية ص٦.

(٨) يقول باسيلي نيكيتين في كتابه (الكرد – دراسة سوسيولوجية) : ولأن الكردي محروم من إمكانية الدراسة بلغته القومية، فهو لا يستطيع أن يكتب بلغته الكردية. ولذلك فإنه مظلوم في هذا المجال بالمقارنة مع جيرانه الترك والفرس والعرب الذين يدرسون بلغاتهم. ومن هنا نجده مضطرا لينكبّ على الأدب الشفاهي الفولكلوري ص٤٢٤.

(٩) نقرأ في كتاب (صورة العرب في الأدب الفارسي) ما يلي : وهناك جانب آخر من سيرورة التفريس تلك،

تجلى في سياسة إصلاح اللغة التي بدأها رضا شاه والتي تماشت بالقسوة ذاتها مع حركة الاصلاح اللغوي في تركيا التي فرضها كمال أتاتورك. ففي عام ١٩٣٥ أسس رضا شاه الأكاديمية الثقافية التي هدفت إلى تطوير اللغة الفارسية والأدب الفارسي (لأنهما وحدهما ما سوف تدور حولهما عملية التمركز لبناء إيران الحديثة. ص٢٥.

(١٠) جون جوزيف، اللغة والهوية، ترجمة د. عبدالنور خراقي، سلسلة عالم المعرفة العدد ٢٠٠٧/٣٤٢ الكويت ص٨٥.

(١١) للمزيد أنظر : د. سعد بشير إسكندر، عن الدولة الحديثة والأمة والنزعة القومية، منشورات مكتب الفكر والتوعية، سليمانية، ٢٠٠٥.

(١٢) نلاحظ أن إسكندر يشير إلى هذه الأثنيات باعتبارها جماعات، وهذا أقرب إلى الصواب، بينما يشير إليها بطاطو باعتبارها أقلية كبيرة، وأخرى غيرها أقليات صغيرة، وهذا أمر غير دقيق ويخضع في اعتقادنا للأدلجة السياسية ودوغمائيتها أحيانا (المؤلف).

(١٣) د. فرست مرعي، الدور التاريخي للكرد، مجلة سردم العربي،١٧-١٨، ٢٠٠٧، سليمانية.

(١٤) د. فرست مرعي /، نفسه.

(١٥) يقول رفيق حلمي في دراسته (الأكراد منذ فجر التاريخ) : وكانت هذه اللغة- الكردية تكتب قبل الاسلام من الشمال إلى اليمين بأبجدية مستقلة مشابهة للأبجدية الآشورية والأرمنية، وقد تركت هذه الأبجدية بعد الاسلام

اكتفاء بالأبجدية العربية لأنها لغة القرآن.. مجلة سردم العربي العدد ٢١، ٢٠٠٨.

ويقول نيكيتين في كتابه (الكرد – دراسة سوسيولوجية): استطاع الشعب الكردي مع إيمانه بالاسلام، أن يحافظ على أو ينشئ له قيمه الروحية التي لا تترك أي شك حول ذاتيته وشخصيته المتميزة تماما عما للآخرين.. ص٤٢٠.

(١٦) جون جوزيف، المرجع نفسه، ص٨.

(١٧) جون جوزيف، نفسه ص٤٥.

(١٨) تقع مدينة خانقين إلى الشمال الشرقي من العاصمة العراقية بغداد، على

مسافة مائة وثمانون كيلو مترا تقريبا، قريبا من الحدود مع إيران. وكانت في القديم تحمل اسم أرتميتا، وقد أسسها السلوقيون خلف الاسكندر وسموها باسم الإلاهة الإغريقية (أرتميت – أرتميس) التي كانت تحمل صفات عشتار السومرية.

(١٩) يقول فاضل كريم أحمد في كتابه (تاريخ الفكر الكردي) : إن إحدى المشاكل التي تواجهنا، هي عدم وضوح هوية قسم من مؤرخينا وكتابنا، إذ إنهم لم يكتبوا شيئا عن هويتهم القومية، كما أن نتاجاتهم ليست باللغة الكردية، بالاضافة إلى أن بعضا منهم أرجعوا جذورهم وأصولهم إلى عشيرة من العشائر العربية أو الفارسية، وكان من الصعب عليه أن يقول : أنا كردي بكل صراحة ووضوح... ص١٥.

ومن اللافت للانتباه بهذا الصدد أن شرفخان البدليسي وعلى الرغم من المكانة الهامة التي وصل إليها عند شاه إيران، لم يكن يعلن عن كرديته، وثمة أسباب قد تكون مقنعة لنا. بمعنى فإن البدليسي الذي كان يحمل طموحا كبيرا للصعود إلى أعلى المناصب، كان يخشى بالاعلان عن كرديته أن يثير حفيظة الحكام ممن كان يعمل في معيتهم.

(٢٠) يقول فاضل كريم أحمد في كتابه (تاريخ الفكر الكردي) : لقد اضطر المفكرون الكرد إلى قطع المراحل الدراسية المطلوبة باللغة العربية مرحلة مرحلة، وبنجاح تام، واكتساب أعلى الدرجات في الخبرة والمعرفة في قواعد اللغة العربية والفقه وتفسير القرآن والحديث. ولربما لم يبذل هؤلاء ١% من ذلك الجهد للاهتمام باللغة والأدب الكرديين.. ص٨.

(٢١) د. وليد العناتي، التباين وأثره في تشكيل النظرية اللغوية العربية، وزارة الثقافة، عمان ٢٠٠١، ص٤٧.

(٢٢) أنظر مقدمة كتاب التباين وأثره بقلم د. وليد سيف.

(٢٣) جون جوزيف، المرجع السابق، ص١٣٩.

(٢٤) احتفل الكرد في هذا العام ٢٠١٢ م بعامهم الكردي الجديد ٢٧١٢.

(٢٥) للمزيد أنظر : د. وليد العناتي، المرجع السابق، ص٢١-٢٢.

(٢٦) يمكن الاطلاع على كتاب عزيز ياور حول التعليم في خانقين ففيه من الوثائق الكثير مما يبين هذا الأمر.

(٢٧) يمكن للقارئ الاطلاع على كتابنا الذي يحمل عنوان (التزوير في الأدب اليهودي) الصادر عن دار القلم في دمشق عام ٢٠٠٠، وبالذات الفصل الخاص برواية (كوكب الرماد) للروائي الاسرائيلي يحئيل دينور التي تصور هذه الابادة المزعومة.

(٢٨) جون جوزيف، نفسه ص١٣٩.

(٢٩) يقول فاروق حجي مصطفى في دراسته (حقوق الانسان الكردي) : كما أن الحظر المفروض على اللغة والثقافة الكردية ما زال معمولا به، فالكردي ممنوع عليه تعلم لغته الأم، علما أنها اللغة الثانية بعد العربية من حيث عدد المتحدثين بها.. مجلة سردم العربي، العدد ١٧- ١٨، ٢٠٠٧ .

(٣٠) لقد أجبرت عمليات التعريب التي كانت تجري في خانقين وسواها من المناطق الكردية، الكثيرين وكما أشار فاضل كريم أحمد سابقا هو الآخر، إلى أن يقوم البعض من عشيرة " الجمور " الكردية بنسب أنفسهم إلى عشيرة " الجبور" العربية. وجدير بالذكر هنا إلى أنه ثمة مقولة تقال على ألسنة العراقيين، للاشارة إلى كثرة تعداد هذه العشيرة العربية : من يضيّع أصله يقول أنا جبوري.

(٣١) د. فؤاد حمه خورشيد، اللغة واللهجات الكردية، ص٣.

وتقول كنياز إبراهيم ميرزيف في كتابها (موسوعة الكرد الصغرى):

بغض النظر عن الظهور الواضح لصفات وخصائص اللهجات والمتعلقة بسنوات طويلة من التقيد والاسكان الإقليمي الاجباري للشعب الكردي، حافظت اللغة الكردية على استقلاليتها وخصائصها على امتداد مساحة انتشارها، ص٣١٩ .

(٣٢) عبد الله الحراصي، من الهيمنة الخفية إلى التدافع الواعي، مجلة نزوى، العدد ٣٤، ٢٠٠٣(سلطنة عمان).

(٣٣) يصنع السماور عادة من النحاس أو من الستيل الذي لا يصدأ، ويتكون عادة من خزان سفلي يوضع فيه النفط، وفي أعلاه ثمة خزان للماء، يوضع فوقه إبريق الشاي، ويتم إشعاله تماما كما تشعل فتيلة المدفأة النفطية، فتغلى المياه في خزانها وكذلك الشاي الذي في الابريق.

(٣٤) يستخدم الكرد الحرف العربي في كتابة لغتهم في كل من العراق وإيران، والحرف الروسي في أرمينيا وجورجيا، والحرف اللاتيني في اتحاد الدول المستقلة.

(٣٥) إدوارد سعيد، تأملات حول البداية – بدايات ٢٠٠٨، دمشق، ص٤٤.

(٣٦) د. وليد العناتي، المرجع السابق، ص١١.

(٣٧) د. إبراهيم خليل، في النقد والنقد الألسني، عمان ٢٠٠٥، ص٢١.

(٣٨) د. العناتي، نفسه ص٢١.

المبحث الثالث

(الكرد...جدل المقاومة)

" لذا يمكن القول بأن بدايات ظهوراللغة الكوردية في جبال كوردستان يرجع إلى عام ١٠٠٠ ق. م، متمثلة بلغة الكوتيين، وأن هذه اللغة استكملت هويتها اللغوية الآرية المميزة بعد وصول الميديين إلى كوردستان، فتحولت بهم إلى لغة هندو- أوروبية واضحة بحدود ٥٠٠ ق. م، واستمرت كذلك في جبال كوردستان كلغة عامة موحدة للشعب الكردي"

د. فؤاد حمه خورشيد
اللغة واللهجات الكردية : ص٣٧

لماذا اختار الشاعر الكردي المعروف أحمدي خاني اللغة الكردية ليكتب بها ملحمة الحب الشهيرة (مم وزين)، على الرغم من قدرته على الكتابة بإحدى اللغتين واسعتي الانتشار آنذاك : العربية والفارسية ؟ ربما لو كان الشاعر شخصا آخر سوى خاني، لذهب في اتجاه مغاير ليس هو نفسه الإتجاه

الذي اختاره خاني القابض على حقيقته الكردية بكل جماع قوته، ولكتب بإحدى اللغتين السابقتين، للاعتقاد بأن الكتابة باللغة الواسعة الانتشار تجلب لصاحبها في الغالب الشهرة، وللأثر الأدبي الذيوع والانتشار، خصوصا وأن الطبقة المتعلمة والمثقفة الكردية في ذلك الحين، أدارت ظهرها للسانها ولغتها، وأعطت كل اهتمامها وفكرها ووعيها لآداب الشعوب الأخرى، وهذه الظاهرة لها علاقة وارتباط بثقافة الاحتلال والشعور بالنقص كما يقول فاضل كريم أحمد، لذلك اتخذ خاني قرار التغيير وإدارة عجلته [1].

عندما اختار خاني الكردية، التي هي لغة فطرته الاولى التي تعلمها من هدهدات أمه التي رضع حليبها، فكتب بها رائعته، فإنما لأنه كان على يقين كامل بأن الكتابة بلغة الآخر، فارسية كانت اللغة التي سيكتب بها أو عربية أو سواهما، من شأنها تمهيد الطريق أمام هذا الآخر لسحقه كشاعر كردي، أو حتى كإنسان له خصوصياته وهويته المختلفة عن هوية كل من الفارسي والعربي، وليس لإعلاء شأنها كما كان يتوهم أولئك الذين يجهلون قيمة اللغة في حياة الشعوب ووجودها، فلا يضعونها في المكانة

التي تستحقها كعامل توحيد للأمة، وتأكيد لوجودها الذي ربما يحاول هذا الآخر نفيه وعدم الاعتراف به. ولقد قال خاني في صريح العبارة وهو يبين سبب هذا الاختيار : كان في مقدوري كتابة مم وزين بالفارسية أو العربية، لكنني فضلت كتابتها بالكردية لأمنع الآخرين جميعا من القول بأن الأكراد ليس لديهم ثقافة، ولأمنعهم من القول بأن الأكراد لا معرفة عندهم، أو ليس لهم أصل وأساس.

إنها خطوة جريئة غايتها إبرازهوية الكرد القومية، والمحافظة على سمات الأمة وثروتها الثقافية العظيمة، ومنع إذابتها في الدين والسلطة الحاكمة.

ما سبق يعني بصورة قطعية عدم استعداد خاني الشاعر الكردي لزرع لغة الآخر في ثقافته، التي يرى أن من بين أبرز وأهم عناصرها اللغة التي يتحدث بها، والتي عليه الكتابة بها كذلك. ولئلا تختفي الحقيقة من أمام أنظارنا، فإنه من جانب آخر يكون قد قدم الدليل الواضح على اعتقاده بأن اللغة إنما هي الأداة البرهانية على وجود الشعب الكردي، الذي له ثقافته الكردية، التي ستكون لها خصائصها وملامحها التي تصعب المحافظة عليها في حالة

استخدام أي من اللغات الأخرى للكتابة بها. إنها – هذه اللغة الأداة البرهانية على وجود هوية كردية، لها طابعها المختلف عما يجاورها من هويات الآخرين من الفرس والعرب والترك. إننا نتحدث عن واحدة من حالات الشعر تكون فيها لغة الشاعر سببا للمحافظة على الذات والهوية. وهكذا وكمثل ما قام به أحمدي خاني، فإن شعراء الهوية من الكرد وغيرهم من الشعراء في الأقوام الأخرى، إنما يتفاعلون مع واقعهم، لمقاومة مختلف أشكال الهيمنة التي تحاول لغات أخرى فرضها على ثقافاتهم ووجودهم، وذلك باستخدام لغاتهم وعدم العزوف عنها واللجوء إلى غيرها لاستخدامها في التعبير، بصرف النظر إن كان المنجز الأدبي (مم وزين) أو غيرها من منجزات الأقوام التي يتفاعل مبدعوها هم الآخرون مع واقعهم، لمقاومة مختلف أشكال التمييز والاستغلال والاضطهاد.

إننا نحترم مثل هذا الاختيار، ولا يمكننا اعتباره مناوئا للنزعة الانسانية في الشعر التي لا تؤمن بالحدود. ولو افترضنا أن الاختيار الآخر الذي هو اختيار لغة أخرى ليكتب بها خاني هذا النص هو ما نحبذه لإظهار هذه النزعة الانسانية التي نقصدها،

فإننا نكون من حيث ندري أو لاندري قد أسقطنا حق الكردي الذي في أعماق خاني في ممارسة نشاطه الانساني كمخلوق من حقه اختيار اللغة التي يريد الكتابة بها. إننا إذا ما فرضنا عليه لغة أخرى سوى الكردية ليكتب بها، نكون قد مارسنا عسفا كبيرا علينا النأي بأنفسنا عنه ولا نرضى بارتكابه مهما كانت الذرائع التي قد نقدمها. وإذا كان خاني قد قدم نوعا من خطاب الهوية، فإنه الخطاب المشروع الذي لا يتنافى بتاتا مع خطاب الانسانية. أما كيف ذلك، فإنما لأنه في مقدورنا الحديث عن مجموعة من الهويات، تتشكل منها حضارة البشر، وعن مجموعة ثقافات تتغذى من بعضها، بدون هيمنة إحداها على الأخريات، وهي ذاتها الهوية التي كان خاني يتوخى لإيقاظها في حديثه حول مبررات استخدام اللغة الكردية في كتابة (مم وزين).

لقد وضع خاني باختياره لغته الكردية للكتابة بها، هذه اللغة في موقعها الذي يجب أن تتبوأه وبجدارة. وهو في هذا يكون في نظرة أخرى، قد قدم التفسير العقلاني والمنطقي لمجموعة من المفهومات وما فيها من القيم، كمثل التواصل الثقافي والحوار بين الثقافات واللقاء بينها، والمثاقفة والتلاقح الثقافي

والكثير غيرها، مما يقع في الخانة ذاتها من أسس التفاعل مع الآخرين، في عمليات التبادل الثقافي، والعطاء الثقافي، دون أن يؤثر هذا كله على خصوصيات أي منها. إنه باختياره لغة شعبه التي ربما كانت تمر آنذاك بواحدة من المراحل الحرجة التي تمر بها اللغات عادة، إنما كان يعلن عن رفضه المبرم لفكرة تسليع الثقافة وتسليع الشعر الذي يكتبه، وكذلك رفض الفكرة التي تكتفي بالنظر إلى اللغة باعتبارها مجرد وسيلة لإيصال غاية فكرية إلى الآخرين. وسوف نلاحظ إذا ما أمعنا التفكير بفلسفة الاختيار، أن خاني إنما أراد البحث عن حيز ثقافي لثقافته الكردية التي كان يرى أنها لا تقل مستوى عن مثيلاتها الثقافات المجاورة.

إن أداة الكتابة التي هي اللغة، تعدّ مرتعا للصراع بين القوى الثقافية كذلك، وفيها أيضا يكمن الاختلاف، وتتجلى الخصوصيات التي تميز هذا القوم عن ذاك، وهذه الأمة عن تلك كما سبق القول في مبحث سابق. وأن تكون سيدا كما سبق وذكرنا من قول الفيلسوف نيتشه، عليك أن تطلق الأسماء التي تريدها كمبدع، أو حتى كإنسان عادي في مجتمع ما، أو كدولة من الدول [٣]، فهذا اسمه مم،

وتلك هي زين الزينات الكردية، التي تعتبر أجمل الجميلات. هكذا فإننا أمام مم وزين، رائعة خاني الشعرية، نكون قد تمكنا من رؤية واحد من الميادين التي تظهر فيها مفعولات اللغة، التي تعدّ المحافظة عليها، دفاعا عن الذات والهوية، باعتبارهما أقدس الأهداف التي يسعى الشاعر الفذ أيا كانت جنسيته ولغته للدفاع عنهما، وبعثهما من جديد إن اقتضت الحال من تحت رماد الحروب، ومن بين قيود القاهر بالقوة الخرقاء وأغلاله وحروبه المعلنة والمستترة.

لقد وضع خاني يده بذكاء كبير على جوهر أزمة الكاتب الذي يعيش في مجتمع سرقت منه أرضه وإرادته كلتيهما معا. وهي الأزمة التي تتمثل بأداة الكتابة. تلك الأداة التي يحاول من يمتلك السلطة والقوة إقصاءها عن الوجود، وإحلال لغة أخرى في مكانها. هنا فإننا لا نهدف إلى إنارة أو تحليل ملحمة (مم وزين) كما قد يتبادر لأذهان البعض من القراء، وإنما يتمثل الهدف في محاولة الكشف عن قيمة الهوية في الشعر والحياة، وبما يخدم هدف هذه الدراسة.

ويعرف المهتمون بالشأن الكردي أن كردستان ومنذ زمن بعيد يرجع إلى ما قبل الميلاد، تعرضت

لعشرات عمليات الغزو التي كانت تقوم بها القبائل والدول المتاخمة لها آنذاك، والبعيدة كذلك. ومثلما شمل ذلك الغزو الجغرافيا من حيث هي مكان يعيش فيه الكرد، فقد شمل اللغة الكردية أيضا. صحيح أن الميديين وقبل سقوط امبراطوريتهم عام (٥٥٠ ق.م) قد صانوا هذه اللغة وحافظوا عليها موحدة، إلا أن الكرد ومنذ ذلك السقوط، لم يستطيعوا إنشاء أية سلطة سياسية بالمعنى المتعارف عليه، تكون قوية وقادرة على حماية هذه اللغة، التي بدأت اللهجات تظهر فيها في نهايات القرن العاشر الميلادي تقريبا، وإن كان الدكتور فؤاد حمه خورشيد يرى بأن ظهور هذه اللهجات إنما يرتبط بالتطور التاريخي للأمة الكردية، وبتاريخها السياسي ووضعها الاجتماعي[٤]. وإلى ما يؤيد صحة هذا الطرح يقول الميجر نوئيل : غالبا ما يقال أن اللغة الكردية ما هي إلا لهجات تختلف من واد إلى واد آخر. صحيح أن اللغة (الأصح القول اللهجة – المؤلف) في جنوب شرقي كردستان البابانية (يقصد السليمانية ومناطقها – المؤلف) تختلف قليلا عن الكرمانجية، ولكن من غير الصحيح القول أن هذه الاختلافات فيما بينها هي اختلافات جوهرية. كان معي رجال من بوتان

وديار بكر وهكاري. كانوا جميعا يتفاهمون جيدا فيما بينهم، ويتفهمون اللهجة السائدة في أقصى غرب كردستان. وما كان عليهم سوى البقاء هناك لبضعة أسابيع ليصبحوا وكأنهم يتكلمون لغة بيتهم. إن هذه الاختلافات موجودة ويعزى وجودها بشكل رئيسي في تغيير أصوات الحروف اللينة [٥].

وبصرف النظر عن كل ما يمكن أن يقال في أصل الكرد [٦]، وفي اللغة التي كانوا يستخدمونها فيما بينهم قديما، إلا أن المهتمين بتاريخ المنطقة، يكادون يجمعون على توفرعناصر التكون القومي عندهم منذ ما قبل الميلاد، وأنهم سوى هذا كانت لهم أهميتهم البالغة في تاريخ هذه المنطقة، والسيرورات التي شهدتها خلال الأزمنة المتعاقبة. يقول المؤرخ اليوناني زينفون : حسب نوعية السهام التي بدت متطورة، تبين بأنهم – الكرد اعتمدوا على أنفسهم لأنهم استطاعوا التصدي لهجمات حوالي (١٢٠٠٠٠) مائة وعشرين ألف مقاتل شاهنشاهي، وهذا يدل على أنهم استطاعوا المحافظة على استقلاليتهم[٧].

صحيح أنه في المراحل التاريخية القديمة كانت هناك رابطة النسب بين الكردية والفارسية، ولكن

يظهر للعيان أن اللغة الكردية لغة خاصة بشعب يعيش في أرض كردستان، تختلف عن كل اللغات المجاورة بما فيها الفارسية[٨]. ولربما بسبب هذا الاحساس بالاختلاف الذي انتبه إليه زينفون قديما، كان توجه الكرد نحو الاستقلالية وإلحاحهم في طلبها، وعدم الاذعان لغيرهم من الأقوام. يقول زينفون : هذا الشعب الذي يعيش في منطقة جبلية، يميل إلى انفصال عن حكم الشاه، وينادي بالاستقلال الذاتي ونيل حريته، وهذا يعني أن تعطشه للحرية والانفصال نابع مما عنده من اللغة المستقلة. والقول باستقلالية اللغة الكردية هو ما يذهب إليه فؤاد حمه خورشيد : صحيح أن اللغة الكردية تشبه ظاهرة اللغتين البهلوية والفارسية الحديثة من حيث اختلافاتها وتطوراتها عن لغة الأفيستا، إلا أن للكوردية شخصيتها المستقلة كلغة[٩].

لربما مرت سنوات طويلة بقيت فيها كردستان أو أجزاء واسعة منها تحت سيطرة المحتلين بصرف النظرعن جنسياتهم وألسنتهم، إلا أنها بقيت مأهولة بسكانها الأصليين الذين لم يرحلوا عنها، ولم يتنازلوا في الوقت نفسه عن لغتهم التي توارثوها جيل عن جيل، فظلت هي وحدها اللغة السائدة والمتسيدة التي

لم يقبل الكرد سواها من اللغات على ألسنتهم وفي أرضهم كردستان، التي خضعت بعض أجزائها لعمليات مختلفة من التفريس والتعريب والتتريك وبحسب المناطق التي خضعت للسيطرة الخارجية[١٠]. بمعنى آخر، فإن الكرد سكان أصليون لأراضي واسعة تقدر مساحتها ب(٥٠٠٠٠٠) كيلومترمربع من المناطق الجبلية في آسيا الصغرى، وقد تكونت لغتهم في المنطقة ذاتها، وليس في أية منطقة أخرى. وفي مقدورنا الاشارة إلى ما يقوله العالم مينورسكي : بالنسبة للكرد المشتتين بين أرجاء واسعة، المختلفين من وجهة النظر الاجتماعية اختلافا كبيرا، تعدّ طريقة حياتهم ولغتهم من العناصر الأساسية التي يمكن الاستناد عليها لبيان خصائصهم الوطنية[١١].

ولقد بقي الكرد على امتداد تاريخهم الذي حاولت السرديات المعادية لهم تغييبه أو التقليل من شأنه، يحافظون على هويتهم الخاصة، التي لم يقبلوا على الرغم من تضحياتهم الجسيمة التنازل عنها. هذا القدر (بفتح كل من القاف والدال) المرير، بما فيه من صمود وتضحية، يقف أحمدي خاني أمامه فيقول في التعبير عنه وبما يوضح أبعاده : إنني

حائر في المصير الذي خصصه الله للكرد. هؤلاء الكرد الذين بلغوا المجد بسيوفهم، كيف يصح منعهم من حكم أنفسهم بأنفسهم وإخضاعهم لسلطة الآخرين ؟ إن الترك والفرس محاطون بأسوار كردية.. وكلما تحركت جيوش العرب والترك سبح الكرد في الدماء التي يسفكها هؤلاء. إننا متفرقون دوما، وعلى خلاف فيما بيننا، ولا يخضع الواحد منا للآخر، أما إذا اتحدنا جميعا، فلن يستطيع هؤلاء الوقوف في وجهنا[١٢]. لقد واصل الكرد التغني بلغتهم كذلك، وهذا شاعرهم خاني يقول في قصيدة له :

الروم والعجم محاطون بهم
فالكرد في الأطراف الأربعة
وقد جعل الطرفان من قبائل الكورد هدفا لسهام القضاء
إن قلزم الروم، وبحر الطاجك هذين
كلما أرادوا الخروج والتحريك
يصبح الكورد ملطخين بالدماء
ويفصلون بينهما مثل البرزخ
فالمروءة والهمة والسخاء
والرجولة والغيرة والقوة

مختومة باسم قبائل الكرد
فأحسبهم سيفا لهمة العدالة
أو أحسبهم أسدا لهمة العدالة

وإذا ما حرصنا على أن يتميز فهمنا بالموضوعية، لا بدّ أن نعرف ما تعنيه لفظة " كرد". فهي وكما يرد في معاجم اللغة، تعني المدافعة والاطراد، إذ يقال: هو يكردهم أي يدفعهم ويطردهم. ويرى البعض ممن يهتمون باللغة، أن الكرد قوم اشتق اسمهم من صفتهم، التي هي المكاردة أو المطاردة. وغاية الأمر القول : لقد تمكن الكورد عبر العصور المختلفة من المحافظة على خصائصهم الذاتية داخل وطنهم القومي كوردستان، متحاشين بذلك كل الضغوط التي تعرضوا لها نتيجة المحاولات المستمرة التي بذلتها الأقوام والأجناس والمجموعات العرقية الأخرى لصهرهم أو إجبارهم على الانصهار فيها(١٣).

إن رفض عملية الانصهار هذه، أمر طبيعي وحتمي وليس من المتوقع حدوث ما يتنافى معه. وفي دراسة ممتعة يأخذ عبدالله الحراصي عن فيركلاف قوله في كتابه (اللغة والقوة) : إن الهدف

الأكثر عملية هو المساعدة بزيادة الوعي باللغة والسلطة، وخصوصا بكيفية مساهمة اللغة في إخضاع البعض، لهيمنة البعض الآخر. إنني سأرسم صورة محزنة بعض الشيء للغة التي يزداد استخدامها في الهيمنة والاضطهاد، إلا أنني أتمنى أن يوازن هذه الصورة المحزنة إيماني بقدرة بني البشر على تغيير ما صنعه بنو البشر، فالمقاومة والرفض ليسا ممكنين فحسب، بل إنهما يحدثان دائما، إلا أن فعالية المقاومة وتحقيق التغيير يعتمدان على تطوير الناس لوعي نقدي بالهيمنة وأشكالها، بدلا من تجربة هذه الهيمنة والعيش فيها(١٤).

ما نستفيده من هذا الاقتباس، أن محافظة الكرد على لغتهم، كان أمرا لا بدّ من، ليس فقط لأن اسمهم على هذا النحو يعني المكاردة والمطاردة، وإنما لأن سلوك الانسان يخضع هو الآخر للمبدأ الفيزيائي القائل : لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ومغاير له في الاتجاه. إن القوة التي تحاول الهيمنة وفرض سلطتها على سواها، وبالذات إذا ما كانت قادمة من خارج الجغرافيا التي يؤمن الكرد بأنها أرضهم، لا بدّ أن تقابلها مقاومة ما ستختلف حدتها باختلاف القوة الضاغطة. ولعله من الصواب التذكير

هنـا بالحكمـة التـي مفادهـا : حيثمـا توجـد السـلطة القاهرة والمتعسفة لا بد أن توجد المقاومة. ولما كان الكرد ومنذ أقدم الأزمنة قد أدركوا خطورة الاذعان للآخر، واختاروا الاحتماء باللغة بالقدر نفسه الذي يحتمون فيه بقلاعهم وجبالهم العصية على الغزاة، فإنهم في هذا إنما يكونون أصحاب بنية ذهنية راقية حقا، استطاعوا عن طريقها التمييز بين مصالحهم الخاصة كشعب، وبين مصالح الجماعات والدول التي حاولت الهيمنة عليهم، بصرف النظر عن الجهة التي جاءت منها إلى ديارهم، فحافظوا على هذه اللغة، وعلى هويتهم هي الأخرى، وعلى وفق ما سبق القول في أحد مباحث الكتاب. ولهذا يصبح من الجائز القول بأن اللغة الكردية لم يتوقف نبضها، كما أنها لم تتحول إلى أشلاء ترهقها لغات الآخرين القادمين فوق خيول الغزو أو دباباته سيان، فالحال مثل بعضها، ولا فرق بين محتل وآخر على امتداد الأزمنة المتعاقبة. لقد بقيت لغتهم مبهجة، وذات نغمات موزونة كما يقول رفيق حلمي، وغير متكلفة، صريحة وغنية، وقابلة للتحوير والتصرف، سهلة التعلم، جذابة رقيقة، فيها أمثال بديعة كثيرة التداول، وهذه تعتبر بحق من مميزات اللغة

الكردية[١٥]. إنها وكما تقول كنياز إبراهيم غنية بمفرداتها، ومتطورة للغاية من ناحية العبارات الاصطلاحية، وفيها مختلف الأنماط والأساليب، بل وإن أفضل النتاجات الأدبية الروسية والعالمية قد وجدت طريقها إلى اللغة الكردية، وبما يدل على ديناميكيتها وتطورها.

إن اللغة الكردية وبحكم وجود عامل الأرض المشتركة، التي لم يرحل عنها الكرد منذ كان لهم فيها وجود، على الرغم من تعدد الهجمات عليهم وتتابعها، أصبحت هي قبل غيرها من العوامل، جدار الممانعة والمقاومة الأكثر متانة وجدوى، بل وقد أصبحت الركن الأساسي في نمو الأنا الجماعية، وفي بروز الهوية الموحدة. ولربما تكون الأقدار قد خدمت الكرد، فاحتفظوا بهذه اللغة، على اعتبار أن بلادهم وكما سبقت الاشارة هي في غالبية مساحتها جبلية وعرة وقاسية، فصارت لهم حامية يصعب وصول الغزاة إلى مختلف مناطقها وبالذات منها تلك التي يمكن أن يحولها المقاتلون الكرد إلى قلاع ليس من اليسير على أي جيش اقتحامها. أي أنهم بالمحافظة على لغتهم، حافظوا على تقاليدهم وثقافتهم وغيرها مما يدخل في عداد الموروث.

الكرد، أو الضمير الكردي في تعبير آخر، الذي هو بشكل من الأشكال، تعرض للاختبار المرير بسبب عنصري اللغة والهوية، وكما تقول لي سنوات عمري التي عشت الكثير منها في وسط الكرد (اعتبارا منذ عام ١٩٧٧)، بأنهم كانوا مخيرين بين أمرين وعلى النحو التالي : إما الاحتفاظ بلغتهم والتصريح بهويتهم القومية وتحمّل ما يتبع هذا الاختيار من المتاعب وهي كثيرة ومتنوعة، أو اختيار اللغة العربية، ومثل ذلك أيضا اختيار القومية العربية وإعلان قبول التعريب، وهذا خيار لا يقبل عليه كردي نظيف وأصيل كما يقولون في مجالسهم. لذا فإن الغالبية الساحقة منهم كانت تختار الأمر الأول، الذي من أبسط ما يتبعه الترحيل إلى مكان آخر بعيد عن مدينة الواحد منهم أوقريته، ومصادرة أرضه وداره. لقد كانت مثل هذه الحال صعبة ومتعبة، وبالذات لأولئك الذين كانوا يعيشون في خانقين وضواحيها، وفي الذكريات المستعادة التي استقرت في الضمير الذي يهزه الألم مما رأى خلال العقود الثلاث الماضية، لم يصب أي ممن أعرفهم من عشيرة الجمور التي عشت في وسطها بمرض الأنوميا، ولا بمرض انفصام الشخصية،

أيهما أو كليهما معا. إن هؤلاء الذين أقصدهم ليسوا مجرد مجموعة بشرية تتوزع بين عدد من القرى ومدينة بقيت غارقة في العذابات على امتداد هذه العقود التي عرفتها فيها، تلاحقهم الدولة بهدف التخلص منهم، إما بالقتل أو بالترحيل أو بالصهر، وإنما بقوا يقبضون على عناصر وجودهم كما لو أنهم يقبضون على الجمر. لست هنا بصدد وصف عرق بشري هو في قصة حياته، كمثل عرق الهنود الحمر والفلسطينيين، الذين ذاقوا المرارات هم الآخرون على أيدي المحتلين البروتستانت واليهود، وإنما بصدد الحديث عن عرق أرضعته الفطرة لغة وهوية، فصارتا مصدرا أساسيا لقلقه في الحياة. وكنت وأنا أعيش في وسطهم، أرى تشبثهم بكل ما يرتبط بتاريخهم بصلة، لا أنتظر موتهم كما كانت الدولة تتمنى لهم أو تنتظره، وإنما أنتظر نهاية تلك الأيديولوجيا التي لا تحترم الآخر، وتخفي له أبشع الأساليب لاستئصاله من الحياة، وتكريس نفسها إلها أووثنا عليه التعبد له وتقديم فروض الطاعة، أيهما يظنه الواحد منا أقرب إلى حقيقة أصحاب تلك الأيديولوجيا. وهكذا علينا أن نفهم بشكل جيد الأسباب التي قد يقدمها الكرد أو بعضهم ممن يتقنون

العربية. يقول فرست مرعي : إن أبناء الكرد رحّبوا بالعربية بوصفها لغة القرآن وأداة الروح والتقرب من الله سبحانه وتعالى، ومع ذلك فإن الكرد وعلماؤهم لم يروا أي تعارض بين إيمانهم بالاسلام وإخلاصهم للغة قومهم [١٦].

هذه القدرة التي مكنت الكرد من المحافظة على لغتهم، حيرت الكثير من الباحثين في تاريخ الكرد. باسيلي نيكيتين واحد من هؤلاء الذين شعروا بالحيرة، وفي بحثه عن العوامل التي ساهمت في تحقيق هذا الأمر،على الرغم من أن التدريس بها لم يتحقق كما يقول إلا في العراق وأرمينيا السوفياتية، تعلم اللغة بالفطرة – أي بواسطة الأم، وعن طريق قيام الشعب ذاته بتداول اللغة، عبر اهتمامه بالأدب الشفاهي الفولكلوري، الذي لاحظ نيكيتين تقدمه على سواه مما لدى الشعوب الأخرى، يقول : أول ما يحيّر المرء لدى قيامه بدراسة الأدب الكردي والتحقيق فيه، هو " نضج الفولكلور الزائد عن الحدّ" على حدّ تعبير البروفيسور فيلجيفسكي الذي يعتبر واحدا من خصائص هذا الأدب[١٧]. إن خطورة عدم التعليم في المدارس الابتدائية باللغة الكردية، واجهها الكرد بما سبقت الاشارة إليهما من تنشيط الأدب

الشفاهي الذي يتم تداوله في منأى عن عيون السلطة الحاكمة بيسر، وهو مما يقوض قدرتها على المراقبة، وثانيا الاعتماد على لسان الأم، وهذا في حقيقته إنما يشير إلى القدرة على ابتكار أساليب في المقاومة، نعتقد أن الكرد قد تميزوا بها عن سواهم، وبالذات في الجانب المختص بالأدب الشفاهي الذي سيعدّ عند الباحثين ليس فقط واجهة للثقافة الكردية، وإنما عاملا أساسيا قام عليه حضور اللغة المتواصل في حياة الكرد، حتى وإن لم تكن مكتوبة خشية من عيون الرقابة الظالمة.

على أن ما يشير إليه نيكيتين بخصوص رفع الحصار عن اللغة الكردية في كل من العراق وأرمينيا السوفياتية لا يبين الحقيقة كاملة. وعذره الوحيد أنه يؤرخ لفترة تأتي في أعقاب التالي مما سنشير إليه، وهذا مما يبين حدود المعركة ضدّ اللغة الكردية إبان وقوع العراق وبضمنه كردستان تحت السيطرة العثمانية. فمن خلال قراءة سريعة للمراحل التعليمية التي مرّ بها الطفل الكردي، وهو بين سندان لغة الأمهات، ومطرقة لغة السلطات، يستطيع المرء أن يدرك ما عاناه هذا الطفل خلال رحلته التعليمية من صعوبات وتعقيدات، منذ أن أسست

المدرسة الحديثة الاولى في المدينة – خانقين [١٨]، وكانت المناهج الدراسية التي هي نفسها التي تدرس في مدارس ولايات العراق الثلاث : بغداد، الموصل، والبصرة. ففي الوقت الذي فرض عليه التعلم باللغة التركية زمن العثمانيين، استمرت السياسة نفسها بعد تشكيل الدولة العراقية (في بداية عشرينات القرن المنصرم) وأجبر على الدراسة والتعلم باللغة العربية [١٩].

إنه نوع من التعليم تظهر فيه المفارقة المضحكة والمثيرة للاشمئزاز في الوقت نفسه. وهي من نوع المفارقات المحيرة حقا، ففي الوقت الذي كانت فيه خانقين ما تزال تحتفظ بشخصيتها الكردية ولم تكن قد عرفت بعد سياسات التعريب التي عرفتها لاحقا، فإن المناهج الدراسية والمواد التي كانت تلقى على الطلاب، كانت تتضمن قواعد اللغة التركية – لغة المحتل، وقواعد اللغة الفارسية – لغة عدو الدولة المحتلة، وقواعد العربية – لغة العدو المحتمل، بالاضافة إلى مادة التاريخ العثماني[٢٠] .

لكنه مما يجب أن لا يغيب عن الأذهان، الردّ الكردي الذي يعلن من خلاله الكرد عن عدم استعدادهم للإذعان. وإلى أبعاد هذا الرد وكيفيته،

يأخذ عزيز ياور عن عبدالقادر الذي هو أصغر أبناء المعلم عبدالعزيز قوله بأن والده كان أول معلم يقوم بالتدريس في مدرسة رسمية زمن العثمانيين في مدينة خانقين، وأنه لم يكن يهمل لغته الكردية على الرغم من أن لغة التعليم كانت اللغة التركية، فكان يذكر أبناءه في البيت بها، فترسخت توجيهاته كما يقول الابن في ذهنه وفي أذهان إخوته [٢١].

ولسوف نفهم خطورة عدم التعليم في المدارس الابتدائية باللغة الكردية من خلال المقايسة مع المثال التالي : إن الكلام بواسطة اللغة – أية لغة، فطري في الانسان، فكل طفل باستثناء حالات القصور العقلي والذهني والخلقي، قادر على اكتساب اللسان – اللغة، أو اكتساب عدد من الألسن – اللغات. فالطفل المولود من أبوين صينيين إذا نشأ في فرنسا مثلا، يكتسب اللغة الفرنسية على الوجه الأكمل[٢٢]، وهذا ينسحب على الطفل المولود من أبوين فرنسيين إذا نشأ وربّي في الصين، يكتسب اللغةالصينية على الوجه الأكمل كذلك. ومما يؤكد أن الاستعداد لاكتساب اللغة استعداد فطري، أن ذلك لا يتمّ بصورة جيدة إلا في مراحل عمرية محددة ومبكرة، فالأطفال الذين يتجاوزون عمرا معينا، إذا تمّ نقلهم

إلى بيئة لغوية أخرى، فلن يستطيعوا اكتساب تلك اللغة بيسر، مثلما هي الحال فيما إذا كانوا قد اندمجوا فيها في سنّ أبكر[٢٣].

هذه جوانب من صعوبات حياة ما يقول عنها البروفسور (مار) أنها الأمة المنسية في التاريخ. ولربما يكون عزيز ياور على صواب حينما يقول : فقرون التتريك، وعقود التعريب، وتأثيرات الاسلام من حيث أداء فرائضه وشعائره باللغة العربية، كانت كافية لأية لغة لأن تستسلم وتفقد الكثير من شخصيتها ومفرداتها، غير أن اللغة الكوردية كلغة نشيطة وأصيلة حافظت على كيانها ووجودها رغم تلك المعطيات القاسية [٢٤].

إن الكرد أكثر من سواهم بقوا على امتداد عقود مظلومين بسبب عدم قدرتهم على الدراسة والتعلم بلغتهم القومية. وأما ملاحظة نيكيتين تلك حول ما نالوه في كل من العراق وأرمينيا السوفياتية، فإنها تبقى مجرد ملاحظة يمكن أن نخضعها للاختبار برؤية الواقع، وهو الاختبار الذي سرعان ما دفع نيكيتين نفسه إلى القول بأن ذلك إنما حدث بقدر محدود، ولا يكاد يكون ظاهرة جديرة بالاهتمام، فما ناله الكرد لم يكن كبيرا أو مؤثرا إلى حد واضح.

وبعيدا عما حاول المهتمون بالشرق إشاعتها من صور كريهة وغير دقيقة للكرد [٢٥]، فإنهم – أي الكرد- وبحسب ستون واتسون : أمة تاريخية قديمة[٢٦].

هؤلاء الكرد الذين نقصدهم وبعد التوقف أمام تاريخهم الطويل وما جرى في أرضهم من وقائع وحروب، هم الذين يستحقون الحياة والحرية كلتيهما معا، لأنهم وعلى وفق المعيار الذي يطرحه غوته ونرى فيه صحة بالغة، بقوا يذهبون من أجلهما في كل يوم من أيام حياتهم التي لها من الطول حوالي ثلاثة آلاف عام تقريبا. لقد واصل الكرد على سبيل المثال نقل قصصهم وحكاياتهم وثقافتهم شفاهيا من جيل إلى جيل، ولم يوقفهم تعب عن فعل هذا الأمر العظيم، ولم تتوقف ألسنتهم وبلغتهم عن سرد كل ما سبقت الاشارة إليه مما تعرف بالمرويات الشفاهية كذلك. لقد واصلوا بحثهم عن الوجود عبر لغة رفضت الانخراط في دوائر لغات الآخرين من جيرانهم الطامعين بهم وبأرضهم، أولئك الذين لم يتوقفوا لحظة واحدة عن ملاحقاتهم لهم. صحيح أنه قد طرأت بعض التغييرات على الكردية، وهي التغييرات التي ليس هذا ميدان دراستها، إلا أن

مينورسكي يرى بأنه في جوهر اللغة الكردية تكمن لغة تتبع مجموعة لغوية ذات شأن كبير، تشكلت أسس خصائصها المميزة قبل توسع الكرد وتوطنهم في الجبال، في المساحة التي تقترب من نصف المليون كيلومتر مربع كما ذكرنا سابقا[٢٧]. ويضيف مينورسكي فيقول حول سبب هذا التبدل : هذا ليس نزوح جماهيري ظاهري، بل تحول ثوري للفئات الاجتماعية، تطلب مصادر مادية جديدة للحياة. نوعية تقنية جديدة، ونوعية جديدة للنظام الاجتماعي، وبالنتيجة، تفكير جديد، ومعه أيديولوجيا جديدة، في تركيبة اللغة، وبالتاكيد تقنيتها الجديدة[٢٨].

ما يذهب إليه مينورسكي يعني الارتباط بين لغة الكرد وتطورهم الاجتماعي، الذي من مظاهره دفاعهم عن لغتهم. بيد أنهم ما يزالون بحاجة إلى لغة قياسية، أو معيارية كما سبق القول، يمكنهم استخدامها في مختلف أرجاء كردستان وليس في جزء واحد منها لوحده. ومثل هذه اللغة، ليست فقط ضرورة اقتصادية[٢٩] من شأنها تطوير الاتصال بين الأفراد المشتركين في نشاط القتصادي معين من الكرد أنفسهم، وإنما هي غير ذلك ضرورة سياسية، يتمثل دورها في المساهمة الكبيرة في تأسيس كيان

جامع، على الرغم من أن الحال الكردية لا تخلو منه تماما، وإن كان هذا كله مما يصعب تحقيقه بدون سلطة سياسية، تأخذ على عاتقها ليس حماية اللغة الكردية فقط، وإنما العمل من أجل تطويرها، وهي عملية لا بدّ أن تكون في أيدي الكرد، أي أن يكونوا سادة أنفسهم، ذلك أنه إذا ما كنت سيدا، فإنه سوف يكون في مقدورك إطلاق الأسماء بحسب نيتشه، وإطلاق اللغة من رقادها بحسب الواقع.

ما نذهب إليه في هذا الصدد لم يأت من فراغ، وثمة ما يبرره بشكل واضح وصريح. إذ وعلى الرغم مما جاء في المادة السادسة عشرة من القانون الأساسي العراقي على سبيل المثال – دستور عام ١٩٢٥ (٣٠)، إلا أن واقع الحال بقي يشير إلى عكس هذا تماما. ولطالما ظل ساطع الحصري يمارس أسلوب الالتفاف والتضييق على أعضاء اللجنة المشرفة على الدراسة الكردية في العراق، إيمانا منه بوجوب العمل بمبدأ التعريب الأثني والفكري للمجتمع العراقي، الذي نعرف بأنه كان وما يزال من المجتمعات متعددة الأثنيات والثقافات. والمفارقة التي يجب الانتباه إليها هنا، أن الحصري في الوقت الذي كان يطالب فيه بأن تكون اللغة العربية هي لغة

التعليم في العراق تحت ذريعة الخشية على العراق، كان يطالب الكرد بتعلم العربية واستخدامها في شؤون حياتهم بدل لغتهم، متناسيا بأن مطالبة الآخر بأمر ما، يجب أن يتوازى مع مطالبة الذات بالأمر نفسه، وإلى هذا كله يقول : إذا أضاعت أمة من الأمم لغتها تكون قد فقدت حياتها[٣١]. فإذا كانت الخشية على العربية قد حملته إلى أن يقول هذا، أليس من حق الكردي هو الآخر أن يفعل ما يظنه الطريق الصحيح للدفاع عن لغته ؟ إنها الغايات والأهداف التي تصبح بسبب الدوغمائية مرتكزات تبرر مقولة ميكافيللي الشهيرة : الغاية تبرر الوسيلة، بصرف النظر إن كان هذا العمل من نوع العمل العنيف ضدّ الآخرين أم لا. لقد قال الحصري : كل من ينتسب إلى البلاد العربية ويتكلم العربية فهو عربي، أيا كان أصله ونسبه ودينه[٣٢]، لكنه القول الذي يخالف الدستور العراقي آنذاك، الذي كان من نصوصه ما يشير إلى حق الاختلاف واختيار اللغة.

هكذا كانت الأمور تمضي، ولكن ما تزال عندنا كلمة..

الهوامش:

(١) أنظر: فاضل كريم أحمد، تاريخ الفكر الكردي، ص٢١٦.

وإلى هذا يقول شرف خان البدليسي في كتابه الشهير (شرفنامه) : ونظرا لانشغال العلماء الأكراد بالعلوم العربية الاسلامية، وعدم انتباه علماء الأكراد ومشايخهم وذوي الرأي والفضل فيهم إلى هذه النقطة، مع إكثارهم من التأليف والنشر في مواضيع مختلفة، بلغات غير لغتهم، كالعربية والفارسية والتركية بل والفرنسية والانجليزية، مما أدى إلى نسيان ما للأكراد من تاريخ مجيد، وما لهم من خدمة للحضارة الاسلامية، فأفضى إلى تقلص ظل اللغة الكردية الجميلة، ذات الأنغام الموسيقية الحساسة، في أغلب المدن الكبيرة بكردستان كالموصل وديار بكر وماردين وكركوك وكرمانشاه التي تسود فيها اللغات غير الوطنية، مما يجعل السائح غير المدقق يعتقد بعدم كردية هذه البلاد الكبيرة، ص٥٥-٥٦.

(٢) فاضل كريم أحمد، المرجع نفسه، ص٢١٧.

(٣) مع سياسة التفريس التي انتهجها شاه إيران رضا شاه، وما تعرف بسياسة إصلاح اللغة، تغيرت الكثير من الأسماء الجغرافية، خصوصا العربية والتركية، فبلوشستان صارت مكران، وساوجبلاق باتت مهاباد، وأرومية باتت

رضـائية، وباتـت المحمـرة خرمشـهر، وقامشـلي باتـت نايستان.. عن كتاب : صورة العرب في الأدب الفارسي الحديث، ص٢٥.

(٤) للمزيد أنظر د. فؤاد حمه خورشيد، أصل الكرد، ص٩٧، وما يتبعها.

ويرى الدكتور خورشيد كذلك بأن تباين لهجات اللغة الكردية لا يمكن اتخاذه ذريعة للطعن بأصالة اللغة الكردية واستقلاليتها كلغة مميزة عما يجاورها من لغات (اللغة واللهجات الكردية)، ص١٤.

ولعله من المفيد الاشارة إلى ما يقوله الشاعر خاني من التغني باللهجة الكرمانجية، التي سوف تصبح عنده لغة لها تقليد ثقافي يستوعب أحاسيسه كشاعر :

سأكرر أنا ولا أتعب
الكرمانجية لغتي الأم
مكثت طويلا في السبائك الذهبية
لم تكف الصكوك الملكية
للتميز عن الأصناف الفارغة

(٥) د. فؤاد حمه خورشيد، اللغة واللهجات الكردية، ص١٤.

(٦) يقول محمد علي عوني في المقدمة إلى كتاب (شرفنامه) (للبدليسي) :

اختلف العلماء في أصل الكرد، وذهب طائفة من علماء الأجناس البشرية إلى أن الكرد من حيث السلالة قبائل آرية سكنت في فجر التاريخ بكاردوكيا
(منطقة وان بدليس)، واعتصمت بالجبال المطلة على آشورية القديمة، حرصا على الحرية والاستقلال اللذين يعشقهما هؤلاء الجبليون بالفطرة

- ويقول د. فؤاد حمه خورشيد : يبدو أن أول ظهور لاسم الكورد بصيغته الحالية ورد في كتاب باللغة البهلوية بشكل (كورد أو كوردان)، فقد أشار (أردشير باباكان) مؤسس الدولة الساسانية عام ٢٢٦م، إلى أن من بين أعدائه رجل سماه (مادك ملك الكوردان).. أصل الكرد، ص٢٦-٢٧.

- ويقول ويليام إيغلتون : دخل الكرد التاريخ كشعب جبلي، سكن القسم الشمالي الغربي من إيران، ومن هناك تحركوا تدريجيا جنوبا وشمالا وغربا داخل آسيا الصغرى والعراق. ويعتقد معظم العلماء أن الكرد المعاصرين هم مزيج من شعوب قديمة : الكاشيين، المانيين، الكوتيين، الميديين، الكردوخيين , ويذكر المؤرخ اليوناني هيرودت أن الكردوخ أرهقوا المرتزقة اليونان الذين كانوا بقيادة زينفون ٤٠١ق.م...(القبائل الكردية).

(٧) المؤرخ زينوفان أو زينفون عمل في خدمة الفرس، وهو قائد عسكري إغريقي قاتل في كل من كردستان وأرمينيا، وقد قال ما سبق إثر تعرضه للمضايقة

والتحرش به من قبل قوم الكاردوكاي – الكرد بين العامين (٤٠١، ٤٠٠) قبل الميلاد وذلك خلال مسيرته بالجيش باتجاه البحر الأسود.

(٨) د. بدرخان السندي، المجتمع الكردي في المنظور الاستشراقي، دار
آراس، أربيل ٢٠٠٠، ص٤٢٩-٤٣٠.

(٩) د. فؤاد حمه خورشيد، اللغة واللهجات الكردية، ص٢.

وإلى هذا أيضا يقول الدكتور فؤاد حمه خورشيد في كتابه (أصل الكرد) : للأمة الكردية لغتها الخاصة، وهذه من اللغات الشرق – أوسطية، التي أثارت إعجاب العديد من المتخصصين بعلم اللغات وتاريخها، باعتبارها واحدة من أقدم اللغات الهندو – أوروبية، التي حافظت على هويتها وخصائصها اللغوية منذ أقدم الأزمنة داخل جبال كردستان..ص٨٥.

ويقول الشاعر حاجي قادر الكويي في تأكيد مكانة اللغة الكردية :

لو كتبت الكتب والدفاتر والتاريخ والأوراق باللغة الكردية
لبقيت أسماء العلماء والشيوخ والأمراء والملوك خاصتنا
وبقيت شهرتهم إلى يوم المحشر

(١٠) يقول عبد الرزاق محمد القيسي في كتابه (محطات أثرت في حياة الكرد)

حول هذه المحاولات : محاولة إزالة الوجود الكردي تماما وبشكل رسمي في تركيا، وعدم الاعتراف بوجود قوم اسمهم الكرد. لم يكن يسمح للكرد بأن يقولوا نحن كرد، فالحكومة التركية تقول أنه لا يوجد كرد في تركيا، وما هؤلاء القوم إلا أتراك الجبل. وفي إيران كانت تتم عمليات الاحتواء والامتصاص والإذابة التدريجية والمتسارعة في آن واحد، ومنذ أيام الشاه وحتى يومنا، بمختلف الطرق والوسائل والأساليب، ص٧٩.

(١١) عن رشيد فندي، الفكر القومي الكردي، دهوك ٢٠٠٨، ص٤٩.

(١٢) ينظر، باسيل نيكيتين، الكرد – دراسة سوسيولوجية، ص٢٩٦.

(١٣) د. فؤاد حمه خورشيد، أصل الكرد، ص٣٢-٣٣.

يلاحظ المؤلف هنا بأن آراء الباحثين الكرد بخصوص تأثير الاسلام على اللغة الكردية تختلف. ففي الوقت الذي يرى فيه البعض بأن هذه التأثيرات فيها جوانب سلبية، فإنه هناك من يرى عكس هذا تماما، وأن الجزم بوجود دور سلبي للاسلام أمر يخلو من الموضوعية، وإذا حدث ما يدل على وجود محاولات من هذا القبيل، فإنها محاولات لا ارتباط حقيقي لها بفلسفة الاسلام، إذ ان الدين الاسلامي يؤكد واحدة من أهم السنن الكونية، وهي تلك التي تطرح

فكرة اختلاف الألسنة – اللغات، وحتى اختلاف الشرائع أيضا. وإلى هذا التباين في الآراء نقرأ في كتاب (تاريخ الفكر الكردي) : فمجيء الاسلام لم يكن مجيء دين جديد أزال دينا قديما وكفى، بل مهد الطريق للغة حاملي الدين الجديد " العربية " لترسخ أقدامها في المجتمع والتراث الثقافي والأدبي لأصحاب الدين القديم. إذ لم يسمح لأبناء كردستان في إقامة الصلاة وموجبات الصوم والدعاء بلغتهم الأم الكردية، بل كان عليهم أداء الصلاة والصوم وتلقين الموتى باللغة العربية، ص٨.

ويقول الدكتور فرست مرعي : وهكذا فقد كان اعتزازهم - الكرد - بالعربية وبالاسلام كبيرا، بوصفها لغة القرآن الكريم، ولم تدر في خلدهم الكتابة بغيرها حتى وإن كانت لغتهم، وهذا ما جعل التراث الكردي جزءا من التراث الاسلامي وليس منفصلا عنه.. الدور التاريخي للكرد، مجلة سردم العدد ١٧- ١٨، ٢٠٠٧.

ويقول الباحث الكردي دانا أحمد مصطفى : فالاسلام ليس كدين المهاجرين الأوروبيين الذين أبادوا الهنود الحمر عن بكرة أبيهم، ليستولوا على أرضهم وديارهم .. الكرد وأزمة الهوية، مجلة سردم العدد ٢٠١١،٣١.

(١٤) أنظر عبد الله الحراصي، من الهيمنة الخفية إلى التدافع الواعي، مجلة
نزوى العدد ٣٤، ٢٠٠٣(مسقط).

(١٥) رفيق حلمي، الأكراد منذ فجر التاريخ، مجلة سردم العربي العدد ٢١، ٢٠٠٨.

(١٦) د. فرست مرعي، الدور التاريخي للكرد، مجلة سردم العربي العدد ١٧-١٨، ٢٠٠٧.

(١٧) باسيل نيكيتين، الكرد.. دراسة سوسيولوجية وتاريخية، ص٤٢٠.

(١٨) يقصد المدرسة التي تأسست في علياوه عام ١٨٨٧، وكانت المناهج الدراسية هي نفسها التي تدرس في مدارس ولايات العراق الثلاث: بغداد، الموصل، والبصرة. ومما يلاحظ أنه إذا كان التعليم في المناطق العربية يتم بلغة أهلها، فإنه في المناطق الكردية كان يتم بغير لغة الأم الكردية، وفي هذا خطر كبير على اللسان الأصلي - اللغة الأصلية.

(١٩) عزيز ياور، التعليم وفصول من تاريخ خانقين، ص٢١٥.

(٢٠) هذه المعلومات مقتبسة من كتاب عزيز ياور : التعليم وفصول من تاريخ خانقين.

(٢١) عزيز ياور، نفسه، ص٤٤.

(٢٢) وليس استطراد وإنما لتوضيح الأمر، فإن أبنائي في مجموعهم يتحدثون الكردية كمثل ما يتحدثها أبناء الكرد. ذلك أن أمهم وهي كردية، كانت إبان سنوات طفولتهم تتكلم معهم بالكردية، فكبروا وتمكنت الكردية من ألسنتهم كمثل ما تتمكن منها العربية، وهذا المثال في الجانب الآخر منه، يبين حرص الكرد على هويتهم ولغتهم، وإلا لماذا لم تكتف هذه الزوجة الوفية لشعبها بأن يتعلم الأبناء العربية وحدها ما دام والدهم عربيا؟

(٢٣) د. إبراهيم خليل، اللغة بين التعريف والتوصيف، مجلة أفكار العدد ٢٤٧،٢٠٠٩ عمان.

(٢٤) عزيز ياور، نفسه، ص٢١٥.

(٢٥) يقول الدكتور هلكوت حكيم وهو كاتب كردي ذو مصداقية وحيادية في المقدمة إلى كتاب نيكيتين (الكرد - دراسة سوسيولوجية) بأن تلك الصور رسمتها ريشة السواح الذين جابوا كردستان والمناطق المحيطة بها، فعادوا بانطباعات سيئة جدا، اكتفت بتعميم المظاهر السطحية، وحوادث قد حدثت لهم شخصيا على عامة هذا الشعب، وسمحت لنفسها بإعطاء حكم قاس، بعيد عن الروح الموضوعية اللامتطرفة. ويقول ديرك كينن في كتابه (الكرد وكردستان) : لقد اكتسب الكرد في نظر الأوروبيين شهرة سيئة عن عادة النهب والسلب. ولكن هذا لا يعتبر جزءا من الحياة الشائعة في كردستان كما يحلو للبعض أن يعتقد. ولا شك أن الكرد هم أنفسهم أيضا مسؤولون عن شيوع مثل هذا الرأي المبالغ فيه ص٢٧.

(٢٦) عن د. سعد بشير إسكندر، الدولة الحديثة، ص٩٦.

(٢٧) كنياز إبراهيم ميرزيف، موسوعة الكرد الصغرى، ترجمة أحمد وحيد علي، أكاديمية التوعية وتأهيل الكوادر ٢٠١٠، ص٣١.

(٢٨) كنياز، نفسه، ص٣٥.

(٢٩) في واحدة من محطات حياتي في العراق، عملت في حقل تجارة الاطارت لفترة سنتين تقريبا، وقد كان من

بين كبار تجار السوق، تجار من الكرد، تعمقت علاقتي التجارية بهم، وقد رأيت من أجل النجاح في مهمتي التجارية، تعلم الأرقام بالكردية، وبما يفيد في كشف أسرار هذه التجارة على اعتبار أن هؤلاء التجار الكرد كانوا هم المستوردين الأساسيين فيها. كان ذلك إبان تسعينيات القرن الماضي، خلال سنوات الحصار الذي كان قد فرض على العراق آنذاك. ولم أواجه صعوبة كبيرة في تعلمها. إن هذا المثال فيه من الدلالة ما يبين بأن اللغة في كثير من الأحيان تصبح ضرورة اقتصادية أيضا، وهذا وجه من أوجه التخاطب بها : الوجه الاقتصادي. لقد استطعت بهذه العملية تطوير اتصالي بالكرد العاملين في السوق، وهكذا فقد حققت اللغة ضرورة اقتصادية، مثلما يمكنها أن تحقق ضرورة سياسية وهكذا إلى ضرورات أخرى في حياة البشر.

ويقول عبدالله الحراصي : فاللغة القياسية ضرورة اقتصادية، لأن تطور الاتصال بين الأفراد المشتركين في النشاط الاقتصادي، باستخدام هذه اللغة يمكنهم من التفاهم. (من الهيمنة الخفية إلى التدافع الواعي، مجلة نزوى العدد ٢٠٠٣/٣٤).

(٣٠) جاء في هذه المادة : للطوئف المختلفة حق تأسيس المدارس لتعليم أفرادها بلغاتها الخاصة والاحتفاظ بها .

(٣١) ساطع الحصري، آراء وأحاديث في القومية والوطنية، بيروت ١٩٥٧، ص٢٩.

(٣٢) الحصـــري، العروبـــة أولا، بيـــروت ١٩٥٨، ص١٢.

الخاتمة

" لقد اختبرت التلامذة في أكثر دروسهم، فوجدت المستوى العلمي في الصف الثاني متوسط، ومنحط تقريبا في الصف الأول. إن اللغة هي السبب الوحيد في هذه المدرسة، لأن التلامذة أكراد ولا يعرفون شيئا من العربية، وقد شاهدت المدرس يلاقي صعوبة كبيرة في التفهيم "
" يجب الاكثار من التكلم باللغة العربية وتعويد الطلاب عليها في محادثتهم وأعمالهم الأخرى "

من تقرير مفتش تربوي زار مدرسة علياوه في ١٩٢٩/٤/١٦
من كتاب " التعليم وفصول من
تاريخ خانقين " لعزيز ياور

نستطيع الجزم بأن الكرد ومنذ أقدم الأزمنة لم يفارقهم الشعور باستقلاليتهم، حتى وإن كانت أجزاء واسعة من ديارهم قد خضعت لأقوام أخرى أتت إليهم غازية. وإذا كان لمثل هذا الشعور من دلالة،

فإنما على أنهم لم يمنحوا المحتلين أيا كانت ألسنتهم وجنسياتهم، فرصة احتلال عقلهم الجماعي. والكرد الذين بقواعلى امتداد تاريخهم يجمعهم الشعور بوحدة اللغة والتاريخ، احتفظوا طوال هذه القرون بصفات ميزتهم عن سواهم من الشعوب المحيطة بهم. وأما لغتهم التي ليست كما كان يعتقد بعض الرحالة والكتاب غير المطلعين عليها، وغير الملمين بها، لهجة مضطربة محرفة عن اللغة الفارسية، ولا واحدة من اللهجات العامية الفارسية لا قواعد ولا ضوابط لها، فإنها ليست من أصل هندي[1]. وهذا الشعور بالاستقلالية، لازمه في الوقت نفسه، شعور بوحدة اللغة والأدب والثقافة والتاريخ جميعها بلا استثناء لأي منها. لقد ظهرت هذه اللغة وكما سبق القول في المناطق الجبلية من آسيا الصغرى، وليس في أي مكان آخر، وحملها الكرد معهم عند تقدمهم إلى الغرب والجنوب.

لقد كان لهذه اللغة دورها الكبير في محافظة الكردعلى وعيهم بالعرق الذي ينتسبون إليه، وهذه مسألة في غاية الأهمية ينبغي عدم صرف النظر عنها. ومن هنا جاء حرصهم عليها، ودفاعهم المستميت عنها، وتوريث أجيالهم بعضها للبعض

الآخر عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم الشفاهية الموروثة، كالملاحم المروية والحكايات، وسواها مما أنجزت الذهنية الكردية التي تتصف بنشاط فريد وغزير في الوقت نفسه. وهذا الذي نستنتجه بشعور الكرد بوجودهم المستقل، هو الذي دفع السياسيين والمثقفين الكرد إلى الحديث عن هوية قومية مستقلة عن غيرها من قوميات المنطقة. ويقول باسيلي نيكيتين : منذ قرون خلت تحتضن كتلة جبال آرارات عند منابع دجلة والفرات، مجموعة قبائل أثبتت عبر التاريخ تجانسها الاجتماعي ووحدتها اللغوية... إنها الكرد [٢].

ويأخذ فؤاد حمه خورشيد عن (إدموند.س. ج) قوله : صحيح أن اللغة الكردية تشبه ظاهريا اللغتين البهلوية والفارسية الحديثة من حيث اختلافاتها وتطوراتها عن لغة الأفيستا، إلا أن للكوردية شخصيتها المستقلة [٣]. وإذا كان من الصحيح أيضا القول بأنه توجد اختلافات لغوية وثقافية على حدود الكرد مع جيرانهم في تركيا والعراق، أكثر مما هي بين الكرد والفرس، إلا أن هذا لا يبيح القول بأن اللغة الكردية لا تمتلك شخصيتها المختلفة عن

غيرها من اللغات التي تتشكل منها عائلة اللغات الهندو - أوروبية.

هناك في اعتقادنا ثلاثة أمور يجب الالتفات إليها قبل إعطاء أي حكم قيمي على منزلة لغة ما. فأما الأمر الأول فيتمثل بمراقبة تاريخ هذه اللغة[٤]، وأما الأمر الثاني فإنه الذي نقوم فيه باستنتاج علاقة هذه اللغة بالواقع الذي تعيش فيه واستمرار هذه العلاقة أو انقطاعها[٥]، في حين أننا في الثالث من هذه الأمور سنقوم بإصدار الحكم على هذه اللغة، وهل أنها من اللغات التي لم يتوقف نبضها ولم تمت أم أنها بعكس ذلك.

وبعيدا عن الحكاية الأسطورية لأصل الكرد وعلاقة ذلك بالضحاك وظهور لغة لهم[٦]، فإن المؤرخ اليوناني (زينفون) يشير في كتابه عن تقهقر العشرة آلاف يوناني سنة (٤٠١ قبل الميلاد) من بلاد العجم باتجاه الشمال، من أنهم مروا في طريقهم إلى البحر الأسود في المنطقة الممتدة من جبال راوندوز لغاية جبال درسيم وأرزنجان، بأمة ذات بطش وجلادة تسمى كاردوخ.

وإذا كان الرأي الغالب بأن كلمة كاردوخ إنما هي صيغة محرفة عن كلمة كرد، فإن هذا الشعب

يكون قد وجد في هذه المنطقة منذ نحو ثلاثة آلاف سنة[٧]، وبنفس الصفات التي امتازت بها القبائل الكردية القديمة. فالأمة الكردية بهذا التصور وبشعوبها الأربع (كرمانج، كوران، لور، كلهر) من أقدم الأمم الآرية التي أنشأت حضارة زاهية في هضبة إيران والبلاد المحيطة بها، وسادت على سائر أخواتها من القبائل الآرية الاولى، وأصبحت بذلك اللغة الكردية لغة عامة تتكلم بها جميع تلكم القبائل الآرية في امبراطوريتهم الممتدة من منابع دجلة والفرات لغاية خليج فارس (هكذا)[٨]. ولقد سميت هذه اللغة بلغة البهلوان، أو البهلوانات، أي الأبطال، وبذا تصبح تسميتها : لغة الأبطال.

إن الحكم الذي يمكننا إصداره، سوف يضع في الحسبان أن لغة الأبطال هذه، سادت في مرحلة من المراحل في مختلف أرجاء الامبراطورية الإيرانية الاولى، وقد استمرت على هذه الحال، إلى أن قضى على هذه الامبراطورية الاسكندر المقدوني، وإن كان من الخطأ الاعتقاد بأن اللغة قد اندحرت هي الأخرى، وأنها لم تعد مما يتداوله الناس في حياتهم. إنها وعلى عكس ما يمكن أن يتوقعه الواحد منا، شهدت بعضا من التطور، بحيث أستطاعت أن

تواكب الواقع الجديد[٩]. هذا قول في سيرورة اللغة، وليس في الظاهر، بدلالة عدم اندحار لغة الكرد أو موتها، إذ أن اللغة وليدة الواقع الذي جاءت لتلتقي مع احتياجات الناس فيه، وعليها في الوقت الذي لا يمكنها فيه خلق هذا الواقع، التعبير عنه. ونستطيع أن نتوقع هنا ما يفيد بأن اللغة الكردية في المراحل الصعبة من حياة الشعب الكردي، بقيت هي قبل غيرها، ما يخلق الشعور بالانتماء إلى الجماعة أو الأمة الكردية، نظرا لما كانت قد أنشأته سابقا في ضمائر الكرد من الاحساس بوحدة الرابطة العقلية والنفسية والوجدانية التي تشدهم إلى بعضهم، بهدف السعي إلى يوتوبيا خاصة بهم، قوامها الاستقلال والتحرر من قيود الآخرين ممن يهاجمون كردستان بهدف الاستيلاء عليها وترويض أهلها. إنه الاحساس بقيمة الذات وبالزهو والتسامي جميعها معا، يحملها الكردي الذي لا يرى نفسه في منزلة تقل عن منازل الآخرين.

يقول أحمدي خاني حول دواعي قيامه بكتابة ملحمة (مم وزين)[١٠]: أنا أكتب هذه الملحمة الشعرية كما كتب الفردوسي (شاعر الفرس الأهم) رائعته الشاهنامة، لكي أصحح ذلك الرأي غير

الصحيح، والمليء بالأخطاء والمتسم بالعجلة، الذي يقول أن الكرد من الناحية العلمية والأدبية ليس لهم شيء يفخرون به، وأنهم مشلولون وبائسون أساسا في هذا المجال، فمثلما غيّر الفردوسي المعادلة، أنا أيضا سأغيّر بالكتابة المعادلة مثله، ولألغي هذا الحكم الذي صدر سابقا (١١).

إذا كانت الأمم ليست كلها متساوية في النطق بحسب ابن خلدون في مقدمته، فإنها ليست متساوية في الإذعان ورفع الرايات البيضاء في استقبال الغزاة والترحيب بهم كذلك بحسب ما نراه من الكرد. وبمعنى آخر، فإن خاني وسواه من الكرد، لم يقفوا لاستقبال هؤلاء الغزاة، كما فعل أولئك الذين وقفوا في انتظارهم في رائعة كافافي : في انتظار البرابرة (١٢).

ليس المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، يقول الكرد لابن خلدون وردا عليه. والدالة إلى ذلك أنهم لم يديروا ظهورهم للغتهم. يقول أحد المشرفين التربويين وكان قد زار مدرسة علياوه في ١٩٢٩/١/١٢م : وجدت مع كل أسف أن الطلاب هنا يتلقون دروسهم في الكردية، خلافا للأوامر،

وسبب ذلك هو أن المعلم كردي، ولا يغار على اللغة العربية، فالروح السائدة – يقصد في خانقين المكان الكردي – هي الروح الكردية [١٣].

إن تبلور اللغة الكردية وتطورها وسلوكها المسار الاستقلالي بين مجموعة اللغات الهندو-أوربية، واكتسابها الهوية المميزة الخاصة بها كلغة للأمة الكوردية، لا يمكن تفسيره إلا من خلال ربط كل ذلك بالمراحل التاريخية التي مرّ بها الشعب الكردي ذاته [١٤]. إنها علاقة اللغة بالواقع الاجتماعي، والتأثير المتبادل بينهما. لقد برهن العالم الروسي (كونيك) استنادا على وثائق تاريخية، على وجود صلة وثيقة بين الشعوب القديمة المتمدنة التي كانت تقطن آسيا القديمة، وبين الشعب الكردي، واستند على وجود هذه الصلة في بيان العلاقة بين اللغة الكردية واللغة الإيرانية، واستنتاج الأصل الكردي – يقصد للغة الكردية – وليس الكلداني البابلي [١٥].

إننا إذا ما عدنا إلى الأسئلة حول الكردي والهوية التي يشعر بالميل الفطري إليها، لا بدّ أن نقرأ قول خاني :

سكبت الماء.... منقوع لزج
أرفع النبيذ من القعر
لغة بسيطة ومفهومة
تسكرني بلا نبيذ
ليس لأجلي أنا.. خاني
أضعت أياما كثيرة
الآن ستصدق القبائل
بأن اللغة الكردية الحرة موجودة
هي أغنية الحب والأمل
تنتشر بين كل البشرية

وفي اختصار شديد، فقد ظلت كردستان وطنا للكرد حتى من دون وجود كيان سياسي مستقل يحميها. وظل الكرد يتحدثون بلغتهم القومية، ويطورون لغتين أدبيتين أساسيتين، حتى من دون وجود مؤسسات حكومية ترعاهما على غرار الشعوب الأخرى ذات السيادة(١٦). إن من بين ما

تمكن الاشارة إليه لفهم قوة اللغة الكردية، الفن الشعري الكردي وأسلوبه بحسب ما يراه نيكيتين، وبالذات منه ذلك الذي يسمى بشعر اللاوك[١٧]. وإذا كان المسعودي قد اتهم الكرد بأنهم تركوا لغتهم الأصلية وأنشأوا لغة قريبة إلى الفارسية، فإن التاريخ الكردي يقول عكس هذا تماما، وتلك هي الملاحم من أشعارهم الشعبية، في خلال فترة حكم أسرة بابان في السليمانية، تذكرنا بمثيلاتها كما يقول كينن في اللغات الأوروبية، حيث تسترسل هذه في وصف المغامرات البطولية والعواطف الرومانسية، وتسجل صورا للحب والمعارك والنبلاء والعفاريت والمعجزات في مئات من الأبيات الطويلة، يرتلها من الذاكرة المنشدون للسامعين داخل صالات النبلاء[١٨] .

إننا أمام لغة لا بدّ تعرضت للكثير من التغيير عبر مراحل حياتها، أنتقلت فيها كما يقول الباحثون في شأنها مما تعرف بالحالة اليافتية إلى الأخرى التي أصبحت فيها واحدة من اللغات الهندو – أوروبية. ولقد ارتبط هذا كله بالتغيرات الاجتماعية التي مر بها الكرد، وبالتبديل الذي طرأ على مستوى المنطقة

عموما، من تغيير في مراكز الحضارات والسيطرة بعد أن خسر الكرد أمر قيادتهم لأنفسهم.

الهوامش

=====

(١) د. فؤاد حمه خورشيد، اللغة واللهجات الكردية، ص١.

(٢) باسيلي نيكيتين، الكرد – دراسة سوسيولوجية وتاريخية، ص١٣.

ويقول ويليام إيغلتون في كتابه (القبائل الكردية) : والكرد هم من الشعوب القليلة التي يرتدي أبناؤها لباسهم التقليدي بكبرياء، ويحتفظون بكثير من مظاهر نظامهم القبلي والاقطاعي الذي صان هويتهم بشكل جيد، ص١٩.

(٣) د. فؤاد حمه خورشيد، اللغة واللهجات الكردية، ص١- ٢.

(٤) تختلف الآراء بشأن تاريخ اللغة الكردية والمراحل التي مرت بها :

- يقول باسيلي نيكيتين: وهكذا وضعت من جديد مسألة أصل الكرد ولغتهم أمام العلماء. فأسهم كبار علماء اللغة في ذلك الوقت من أمثال (رود يجير) و (بوت) بمساعدة علم اللغات المقارن في دحض الفكرة القائلة باحتمال انحدار اللغة الكردية من الكلدانية، وأظهروا علاقتها باللغة الفارسية الحديثة واللغة الزندية التي هي لغة مشتركة بينهما، وبذلك ثبتت علميا وبصورة نهائية النظرية القائلة بانتماء اللغة الكردية إلى مجموعة اللغات الإيرانية.. الكرد دراسة سوسيولوجية وتاريخية، ص٤٨.

يقول شرف خان البدليسي: وأدت الروابط الاقتصادية المشتركة إلى ظهور لغة وثقافة قوميتين مشتركتين ومتطورتين، وجرت هذه العملية بصورة بطيئة نسبيا بسبب بطء تكون الاقتصاد المشترك بين المناطق الكردية، وغياب الكيان السياسي المركزي في كردستان.. شرفنامه، ص٨.

ويقول أرشاك بولانديان:

وحسب المصادر العربية، فقد كانت للكرد لغتهم التي تحتوي على لهجات عديدة. ويورد التنوخي من القرن العاشر اللغة الكردية في سياق اللغات العربية والرومية الافرنجية والصقلية والخزرية، الكرد في ظل الخلافة الاسلامية، ص١٠٥.

(٥) تكاد الآراء تتشابه حول علاقة اللغة الكردية بالواقع ومواكبتها له : يقول ويليام إيغلتون : وحينما تختلف اللغة والدين معا، كما هو الأمر بين الكرد السنة والأذريين الشيعة، يصبح الاختلاف أكثر عمقا. وحينما يتحقق التشابه في اللغة والدين، كما هو بين الكرد الشيعة في كرمنشاه وجيرانهم الفرس، فإن فجوة الاختلاف تضيق، القبائل الكردية ص٢٧.

في الوقت الذي تكون قسوة الاحتلال كبيرة، فإن دور اللغة يتراجع ولو قليلا، وهذا ما نستنتجه من: وحسب المعلومات المتوفرة لدينا، فإنه لم يكن للكرد أدب مكتوب في الفترة الممتدة بين القرنين السابع والعاشر، وكانت المؤلفات التي وصلت إلينا باللغة الكردية، ومكتوبة بأحرف

عربية، تعود للقرنين العاشر والحادي عشر. وقد "عوض الابداع الشعبي شفاها" عن غياب الأدب المكتوب، الكرد في ظل الخلافة الاسلامية، ص١٠٥.

ويقول شرفخان البدليسي : ولما استولى العرب على البلاد الإيرانية كلها، وقضوا على دولة فارس بها في القرن السابع الميلادي، فقدت هذه اللغة – الكردية - بهجتها ورونقها، شرفنامه، ص٨٠.

(٦) تقول الأسطورة : اجتمع خلق كثير ذوو لغات شتى، جيء بهم من مختلف الأقطار في محل واحد فتزوجوا، وتناسلوا، فازداد اولادهم وحفدتهم وأتباعهم شيئا فشيئا، فدعي هذا الجمع أخيرا باسم الكرد، ولما كانوا قد قضوا أمدا طويلا بعيدا عن المدن والبلدان وصاروا أقرب إلى الوحشة والجفوة، أحدثوا لأنفسهم لغة ووضعا - هؤلاء هم أنفسهم الذين كانوا يبقون بعد قتل أحد الشابين وتقديم دماغه للضحاك بحسب ملحمة الشاهنامة الفارسية للفردوسي.

(٧) تعتبر قرية (زيوي جه مي) على نهر الزاب الأعلى في منطقة أربيل - العراق المرحلة الاولى للزراعة في الألف التاسع قبل الميلاد. كما تشير آثار قرية (كانجي) دره في محافظة كرمنشاه - إيران إلى تربية وتدجين الحيوانات في الألف الثامن قبل الميلاد.

(٨) الأمير شرف خان البدليسي، شرفنامه، المترجم : محمد جميل الملا أحمد الروزبياني، ص٧٨.

(٩) من علامات هذا التطور في اللغة والحياة الكردية ما يلي :

في أواسط الثمانينات من القرن الماضي، نشر قسم من شعر كوران المترجم إلى السويدية، فقال شاعر سويدي تعليقا على ذلك، كوران ليس أقل شأنا من نيرودا ولوركا، ولكونه كرديا فقط، لم يعطه أحد حقوقه، ولم يهتم به، كما هو مطلوب، تاريخ الفكر الكردي، ص٢٧.

يقول الرحالة العثماني أوليا جلبي وكان قد ارتحل في كوردستان الشمالية في عام ١٦٥٥م : هناك خمسة عشر جامعا كبيرا في ديار بكر، وفي كل واحد منها توجد مدرسة لدراسة العلوم، ومنها مدرسة إيبارية المشهورة، إذ يدرس فيها علم البيان، ومدرسة خسرو باشا ويدرس فيها علم الكلام، الفكر القومي الكردي، ص٤٨.

(١٠) للمزيد أنظر : يوسف يوسف، دراسات في السرد الكردي، فصل الملحمة والسارد الكردي، ٢٠٠٩.

(١١) فاضل كريم أحمد، تاريخ الفكر الكردي، ص٢١٨.

(١٢) يقول كافافي في قصيدته :

ما الذي ننتظر في الساحة مزدحمين ؟
البرابرة سيصلون اليوم
ولم (بكسر اللام وفتح الميم) مجلس الشيوخ معطل؟
الشيوخ لا يشترعون القوانين
فلم (بكسر اللام وفتح الميم) هم جالسون هناك إذن؟
لأن البرابرة سيصلون اليوم
أي قوانين سيشترعها الشيوخ الآن ؟
عندما يأتي البرابرة.. سيسنون هم القوانين

(١٣) عن عزيز ياور، المرجع نفسه ص٢٢٩.
(١٤) د. فؤاد حمه خورشيد، أصل الكرد، ص٩٥-٩٦.
(١٥) عن باسيل نيكيتين، ص٤٨.
(١٦) د. سعد بشير إسكندر، المرجع نفسه، ص٩٩.
(١٧) اللاوك أشعار غنائية قصيرة، ويجري الحديث فيها عن الأماني والأحلام يتبادلها العاشقان فيما بينهما عندما يفترقان عن بعضهما. ومن شعر اللاوك الكردي :

ها قد حل الربيع
وحان الوقت للخروج من المنزل
الجو في منزل حبيبتي حار
وقد اجتاحته البراغيث
نهدا حبيبتي كانا
إلى ما قبل عام وعامين ما يزالان صغيرين
أما الآن ففي الامكان
أن يعضهما الفتى
هاي لي لي.. هاي لي.. لي

(١٨) ديرك كينن، الكرد وكردستان، ص٢٠ .

المراجع

كتب مطبوعة :

---

(١) د. فـؤاد حمـه خورشـيد، أصـل الكـرد، دار الثقافـة والنشر الكردية، بغداد، ٢٠٠٦.

(٢) حسن سعيد الكرمي، اللغة – نشأتها وتطورها في الفكر والاستعمال، وزارة الثقافة، عمان ٢٠٠٢.

(٣) د. فؤاد حمه خورشيد، اللغة واللهجات الكردية – دراسة جغرافية، دار الثقافة والنشر الكردية، بغداد ٢٠٠٥.

(٤) ديـرك كيـنن، الكـرد وكردسـتان، ترجمـة صـلاح عرفان، مركز الدراسات الكوردية، ٢٠١٠، سليمانية.

(٥) جون جوزيف، اللغة والهوية، ترجمة د. عبدالنور خراقي، سلسلة عالم المعرفة ٣٤٢/ ٢٠٠٧، الكويت.

(٦) د. وليد العناتي، التباين وأثره في تشكيل النظرية اللغوية العربية، وزارة الثقافة، عمان ٢٠٠١.

(٧) باسـيلي نيكيتـين، الكـرد- دراسـة سوسـيولوجية وتاريخيـة، ترجمـة د. نـوري طالبـاني، الطبعـة الثالثـة ٢٠٠٧، سليمانية.

(٨) د. إبراهيم خليل، في النقد والنقد الألسني، عمان ٢٠٠٢.
(٩) ابن خلدون، المقدمة، وزارة الثقافة، عمان ٢٠٠٩.
(١٠) د. فوزي حسن الشايب، محاضرات في اللسانيات، وزارة الثقافة، عمان ١٩٩٩.
(١١) رومان ياكوبسون، أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب، ترجمة فالح صدام الامارة وعبدالجبار محمد علي، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٩٠.
(١٢) ويليام إيغلتون، القبائل الكردية، ترجمة أحمد محمود خليل، مؤسسة موكرياني للطباعة والنشر ٢٠٠٦.
(١٣) ليلاف محمد أمين عزيز، الحقوق السياسية للكرد في الدول التي تضم كردستان، منشورات مكتب الفكر والتوعية، ٢٠٠٧، سليمانية.
(١٤) عبد الرزاق محمود القيسي، محطات أثرت في حياة الكرد وحركاتهم القومية، منشورات مكتب الفكر والتوعية، ٢٠١٠، سليمانية.
(١٥) أرشاك بولانديان، الكرد في ظل الخلافة الاسلامية، المديرية العامة للطباعة والنشر، ٢٠٠٣ سليمانية .
(١٦) الأمير شرف خان البدليسي، شرفنامه، دار المدى للثقافة والنشر،بغداد ٢٠٠٧.
(١٧) رشيد فندي، الفكر القومي الكردي – بين خاني وحاجي قادر الكويي، دهوك ٢٠٠٨.

(١٨) محمد شوق الزين، إزاحات فكرية، منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠٠٨.
(١٩) د. سعد بشير إسكندر، عن الدولة الحديثة والأمة والنزعة القومية، منشورات مكتب الفكر والتوعية ٢٠٠٥.
(٢٠) عزيز ياور، التعليم وفصول من تاريخ خانقين ١٨٨٧-٢٠٠٧، مؤسسة حمدي للطباعة والنشر سليمانية، ٢٠٠٩
(٢١) فاضل كريم أحمد، تاريخ الفكر الكردي، ترجمة د. بندر علي مندلاوي، منشورات مكتب الفكر والتوعية،٢٠١١ سليمانية.
(٢٢) ويل كيمليكا، أوديسا التعددية الثقافية ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة العدد ٢٠١١/٣٧٧ الكويت.
(٢٣) حاتم بن عثمان، العولمة والثقافة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٩.
(٢٤) كنياز إبراهيم ميرزيف، موسوعة الكرد الصغرى، منشورات مكتب الفكر والتوعية ٢٠١٠.
(٢٥) عبد الرقيب يوسف، حدود كردستان الجنوبية تاريخيا وجغرافيا، الطبعة الثانية ٢٠٠٥.
(٢٦) محمد شاهين، إدوارد سعيد - أسفار في عالم الثقافة، المؤسسة العربية
للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٧.

(٢٧) باربرا ويتمر، الأنماط الثقافية للعنف، ترجمة د. ممدوح يوسف عمران، سلسلة عالم المعرفة العدد ٢٠٠٧/٣٣٧ الكويت.
(٢٨) إدوارد سعيد، تأملات حول البداية، الناشر: بدايات ٢٠٠٨، دمشق.
(٢٩) حسن أرفع، الشعب الكردي – دراسة تاريخية وسياسية، ترجمة عبدالرزاق محمود القيسي، منشورات مكتب الفكر والتوعية ٢٠١١
(٣١) يوسف يوسف، دراسات في السرد الكردي، منشورات مهرجان كلاويز، ٢٠٠٩، سليمانية.
(٣١) يوسف يوسف، الثقافة والتنوع الثقافي، منشورات مكتب الفكر والتوعية،٢٠١٢، سليمانية.
(٣٢) يوسف يوسف، خانقين – حكايات أعوام الرماد، منشورات مكتب الفكر والتوعية، ٢٠١٠ سليمانية.

مجلات وصحف :

---

(١) د. عبد الله ابوهيف، اللغة والاعلام واعتبارات إنتاج المعرفة، مجلة أفكار العدد ٢٤٧ /٢٠٠٩ عمان.
(٢) د. يحيى جبر، الواقع اللغوي في فلسطين، مجلة بيادر العدد ١٩٩٠/٣ تونس.
(٣) د. فرست مرعي، الدور التاريخي للكرد، مجلة سردم العربي العدد ١٧-١٨ / ٢٠٠٧.

(٤) د. زياد منى، نظرة طبيعية إلى لغة مصطنعة، مجلة بيادر،١٩٩٠
(٥) د. محمد علي الصويركي، المؤرخ والأديب والأستاذ الكبير – علي سيدو الكردي، مجلة سردم العربي العدد ٢١ / ٢٠٠٨ سليمانية.
(٦) د. إبراهيم خليل، اللغة بين التعريف والتوصيف، مجلة أفكار، العدد ٢٤٧ /٢٠٠٩.
(٧) رفيق حلمي، الأكراد منذ فجر التاريخ، مجلة سردم العربي العدد ٢١ /٢٠٠٨
(٨) نزيه أبونضال، اللغة القومية – الحقائق التاريخية والتشويهات الراهنة، مجلة الوحدة العدد ٣٣ /١٩٨٧ المغرب.
(٩) عبدالسلام بنعبد العالي، الحوار بين الثقافات والصراع بينها، مجلة ثقافات العدد ١٠ /٢٠٠٤ البحرين.
(١٠) قاسم العتمه، اللغة العربية كأداة توحيد، مجلة الوحدة العدد ١٩٨٧/٣٣.
(١١) عبدالله الحراصي، من الهيمنة الخفية إلى التدافع الواعي، مجلة نزوي العدد ٣٤ /٢٠٠٣ مسقط .
(١٢) فاروق حجي مصطفى، حقوق الانسان الكردي، مجلة سردم العربي العدد ١٧- ١٨ /٢٠٠٧
(١٣) يوسف يوسف، اللغة باعتبارها مرجعية – من المتشائل إلى الأعدقاء جريدة الرأي الأردنية ١٩٩٨/١/٩
(١٤) يوسف يوسف، الكلمة والوعي.. المبنى والمعنى، جريدة الاتحاد العراقية ٢٠١٠ /٤/٢٥

الفهرست

الموضوع	الصفحة
إهداء	٣
مدخل	٥
المبحث الأول :	٣٢
اللغة والواقع الاجتماعي	
المبحث الثاني:	٦٥
اللغة والهوية.. المقدس الكردي	
المبحث الثالث :	١٠١
الكرد.. جدل المقاومة	
الخاتمة	١٣٩

انتهى بحمد الله

من منشورات

□الاكاديمية التوعية وتأهيل الكوادر لسنة (٢٠١٢ ـ ٢٠١٣)

ت	المنشورات	المؤلف والمترجم	سنة الطبع
٤٢٩	ئەركەكانی قۆناغی نوێ لەچاوپێکەوتنێکی هەڤاڵ عیماد ئەحمەددا	ئاماده‌كردنى: حەمە عەلی غەریب	٢٠١٢
٤٣٠	المشاريع التي قدمها الاتحاد الوطني الكردستاني عام ١٩٨٤	تقديم فريد اسسرد	٢٠١٢
٤٣١	المحكمة الجنائية العراقية العليا دراسة في مباديء العدالة	محمد رشيد حسن	٢٠١٢
٤٣٢	دور محكمة العدل الدولية في تطوير القانون الدولي العام	سۆز حميد مجيد	٢٠١٢
٤٣٣	گۆڤاری کەلتور ژمارە (٥)		٢٠١٢
٤٣٤	کوردانی سوریا لەژێر دەسەلاتی فەرەنسیدا	نێلیدا فۆکارۆ و. لەئەڵمانیەوە: هەڵۆ بەرزنجی	٢٠١٢
٤٣٥	ئالۆگۆڕە سیاسیەکانو هاوکێشە نوێیەکان	چاوپێکەوتن لەگەڵ هەڤاڵ مەلا بەختیار	٢٠١٢
٤٣٦	هەڵبژاردەکان	شاسوار جەلال (ئارام)	٢٠١٢
٤٣٧	كردستان ككيان ضمن الخطة الدولية	المحامي:	٢٠١٢

	بدءً من جنوبها	شيخ سالار الحفيد	
٤٣٨	مەسەلەی قڕکردنی ئەرمەن لەبەردەم دادگادا	و. لەئەڵمانییەوە: غسان نعسان و. لەعەرەبییەوە: حەسەن جاف	٢٠١٢
٤٣٩	ئێزیدییەکان لەمێژووی نەتەوەکەیاندا	سەربەست حسێن	٢٠١٢
٤٤٠	کۆچ هەڵبژاردم	ئیسماعیل عوسمان و ماتیاس شیلین و حەکیم کاکە وەیس	٢٠١٢
٤٤١	کێشەکانی هزری ئاینی	ئومێد قەرەداغی	٢٠١٢
٤٤٢	پارتی سۆسیالیستی فەرەنسا	بەرزان فەرەج	٢٠١٢
٤٤٣	دیموکراسیو دوژمنانی ئیسلامی میانڕەو لەروانگەی مەلا بەختیارەوە	سردار عبدالکریم مجید	٢٠١٢
٤٤٤	دیموکراسی لەنێوان مۆدێرنێتەو پۆست مۆدێرنەتەدا، ز. هۆشیاری ، ژمارە (٤١)	مەلا بەختیار	٢٠١١
٤٤٥	ئینتەرناسیۆنالیزمی دینیو دیاردەی فرە نەتەوەیی، ز. هۆشیاری، ژمارە (٤٢)	فەرید ئەسەسەرد	٢٠١١
٤٤٦	میژوی نەوتی کەرکوك	فەرهاد حەمزە	٢٠١٢
٤٤٧	باشوری سودان، ز. هۆشیاری ، ژمارە (٤٣)	شادمان مەلا حەسەن	٢٠١٢

٤٤٨	الديمقراطية دراسة فكرية سياسية، ز. هۆشیاری، ژ(٤٤)	عبدالرحمن كريم درويش	٢٠١٢
٤٤٩	الاكراد والديمقراطية والاندماج، ز. هۆشیاری، ژ(٤٥)	فريد اسسرد	٢٠١٢
٤٥٠	زمانی كوردی لەدەستورەكانی عیراقدا، ز. هۆشیاری، ژ(٤٦)	خەلیل عەبدوڵڵا	٢٠١٢
٤٥١	رۆڵی ژنان لەپەرەپێدانی كاری ڕێكخراوەییدا (ی. ن. ك) وەك نمونە. ز. هۆشیاری، ژ(٤٧)	جەمیلە شێخ مەحمود شلێر رەشید نیگار عومەر	٢٠١٢
٤٥٢	ئارام‌و رۆڵی لەبزووتنەوەی سیاسیدا	فەرید ئەسەسەرد	٢٠١٢
٤٥٣	چەپكە گوڵ: قەفتەیەك ژ سەروەری‌و هەڵوستێن ئێكەتی نیشتمانی كوردستان، زنجیرە هۆشیاری، ژ. (٤٩)	قادر حەسەن عیدۆ	٢٠١٢
٤٥٤	توماس هوبزو فلسفته السياسية	احسان عبدالهادی النائب	٢٠١٢
٤٥٥	حزب و ڕێكخراوە سیاسییەكان	محمد فاتیح	٢٠١٢
٤٥٦	المركز القانوني للمواطن وضماناته	دریڤان عبدالقادر بكر	٢٠١٢
٤٥٧	ئەمنی ستراتیجی عیراق‌و سێ كوچكەی بەعسیان	ئەمین قادر مینە	٢٠١٢
٤٥٨	پرۆیسترۆیكا بن لادن‌و مۆنیكا	ستران عەبدوڵڵا	٢٠١٢
٤٥٩			٢٠١٢

	دۆزی کـورد لەنەخشـەی رۆژهـەلاتی ناوەڕاستدا	دکتـــۆر خـــەلیل ئیسماعیل محەمەد	
٤٦٠	دەوڵەتی عوسمانیو عەشیرەتە کوردەکان لەکوردستانی باشور	خالد محمود کریم	٢٠١٢
٤٦١	دۆزی کـورد لەبـەردەم رای گشـتی عەرەبدا (کۆمەڵە وتـار)، ز. نامیلکـەی کورد لەمیدیای جیهانیدا، ژمارە (٤)	وەرگێڕانی: ڕەسوڵ ئیبراهیم	٢٠١٢
٤٦٢	فەلسـەفەو لاهـوت لەسـەدەکانی ناوەڕاستدا	د. حەمید عەزیز	٢٠١٢
٤٦٣	الجريمة المنسية حول الانفال وجرائم الابادة الجماعية في كردستان	نجم الدين فقي عبدالله	٢٠١٢
٤٦٤	رۆژانی پێشمەرگایەتی	دارا محمد یاسین	٢٠١٢
٤٦٥	ئەتلەسی سیاسی هەرێمی کوردستان	فەرید ئەسەسەرد	٢٠١٢
٤٦٦	الدور الأمريكي في بناء الشعوب من المانيا إلى العراق	نظيرة اسماعيل ياري	٢٠١٢
٤٦٧	دەربارەی شێوەی ئاسیایی بەرهەم هێنان لەکوردستاندا	فەرید ئەسەسەرد	٢٠١٢
٤٦٨	دەروازەیەك بۆ زانستی سیاسەت	عابد خالید ڕەسوڵ	٢٠١٢
٤٦٩	کەلتور (ژمارە ٦)		٢٠١٢
٤٧٠	دیپلۆماتو دیپلۆماسی	بەهرۆز گەلاڵی	٢٠١٢
٤٧١	الـدعائم الأساسـية للدولـة الفدراليـة، نامیلکەی هۆشیاری، ژ(٥٠)	د. شۆڕش حسن عمر	٢٠١٢

٤٧٢	رۆڵـی (ی. ن. ك) لـەدیموکراتیزەکردنی کۆمەڵگـەی کوردسـتان، نامیلکـەی ژ(٥١)	ئەنوەر حسین	٢٠١٢
٤٧٣	دەروازەیـەك بـۆ ئاسایشـی نیشـتمانی هەرێمی کوردستان، نامیلکەی ژ(٥٢)	قادر حەمەجان	٢٠١٢
٤٧٤	النظم الأنتخابيـة ونظـام انتخـاب مجلـس المحافظـات العـراق واقلـيم كردسـتان، نامیلکەی هۆشیاری، ژ(٥٣)	د. دەرباز محمد	٢٠١٢
٤٧٥	ئیـداڕەی کـوردیو ئۆپۆزسـیۆن، نامیلکەی هۆشیاری (٥٤)	حەمە دۆستان	٢٠١٢
٤٧٦	المصالحة الوطنية بين التحدي والتحقيق، نامیلکەی هۆشیاری(٥٥)	د. اسماعیل نامق	٢٠١٢
٤٧٧	الطالبـاني وجـائزة نوبـل للسـلام، نامیلکەی هۆشیاری (٥٦)	یوناتا دیوخ موسی	٢٠١٢
٤٧٨	بەتایبـەتیکردن وەك میتـۆدێکی ریفۆرمی ئابوری، نامیلکـەی هۆشـیاری (٥٧)	فەیسەڵ عەلی	٢٠١٢
٤٧٩	ئیسـلامو مۆدێرنیتـەی سیاسـی، نامیلکەی هۆشیاری(٥٨)	مۆریس باربیه	٢٠١٢
٤٨٠	(ی. ن. ك) پێناسەی حزبێکی سۆسـیال دیموکرات، نامیلکەی هۆشیاری (٥٩)	نەجمـەدین فـەقێ عەبدوڵڵا	٢٠١٢

٤٨١	ملحوظات عامة ودروس مستنبطة من معارك الشمال في عام ١٩٦٤	مديرية للتدريب العسكري بوزارة الدفاع العراقية	٢٠١٢
٤٨٢	بازرگانی چەك لەجیهاندا	نجم الدين فقي عبدالله	٢٠١٢
٤٨٣	دستور جمهورية العراق	دلاور عثمان مجيد	٢٠١٢
٤٨٤	التعددية السياسية واثرها على السلطة التشريعية	محمد صابر كريم	٢٠١٢
٤٨٥	بنەماکانی زانستە سیاسیەکان	د. عەبدولڕەحمان عالم و: دلاوەر عەبدوڵڵا	٢٠١٢
٤٨٦	قەیرانی قەرزە سیادیەکانی ناوچەی یۆرۆ	فەیسەڵ عەلی	٢٠١٢
٤٨٧	گەندەڵی (هۆکار، کاریگەری، بەرەنگاربوونەوە)	حامد حاجی قادر	٢٠١٢
٤٨٨	الفساد والاصلاح	عماد صلاح عبدالرزاق	٢٠١٢
٤٨٩	ئەو پرۆژانەی کە یەکێتیی نیشتمانیی کوردستان لەساڵی ١٩٨٤ دا پێشکەشی حکومەتی عیراقی کردووە.		٢٠١٢
٤٩٠	کۆسرەت رەسوڵ عەلی لەپەرلەمانی کوردستان (١٩٩٣/٤/١١)	ئامادەکردنی: مەسعودی مەلا هەمزە	٢٠١٢

	(١٩٩٤/١٢/٢٢)		
٤٩١	سەفەری کوردایەتی(بیرەوەرییەکانی شاروشاخ) ١٩٧٤ - ١٩٨٠	شاخەوان عەباس	٢٠١٢
٤٩٢	کەلتور - ژمارە (٧)		٢٠١٢
٤٩٣	رەهەندەکانی بیری سیاسیی کورد پاش جەنگی دووەمی جیهان	فەرید ئەسەسەرد	٢٠١٢
٤٩٤	کۆمەڵگەو دەوڵەت	ن. باقر پرهام	٢٠١٣
٤٩٥	پەیرەو و پڕۆگرامی ناوخۆی (ی. ن. ك) بەزمانی ئینگلیزی	و: نظیرە اسماعیل یاری	٢٠١٣
٤٩٦	کوردو کێشەی نەتەوایەتی لەتورکیا، زنجیرە نامیلکەی کورد لەمیدیای جیهانیدا،ژمارە(٥)	ن. د. لوتفی ئەلعەموشی و. عەتا قەرەداغی	٢٠١٣
٤٩٧	تونديڕەویی ئایینی لەجیهانێکی گۆڕاودا	ن. ئەلعەفیف ئەلئەخزەرو سەلاح عیساو .... و. حەسەن یاسین	٢٠١٣
٤٩٨	بنەماڵەی بن لادن خێزانێکی عەرەب لەسەدەیەکی ئەمەریکی دا	ن. ستیڤ کۆڵ و. گروپی وەرگێڕانی سەنتەری نیشتمانی بۆ لێکۆڵینەوەی جێندەر	٢٠١٣
٤٩٩	دەوڵەتی عوسمانی لەنێوان چاکسازیو هەڵوەشاندنەوەدا	ن. د. خالد زیادە و. خالد محمود کریم	٢٠١٣

٥٠٠	محاولات الحصري لوأد الدراسة الكردية سياسة دولة أم نزعة ذاتية؟	عزيز ياور	٢٠١٣
٥٠١	رەهەندەکانی کێشەی دارفور	ن: رێکەوت اسماعیل ابراهیم	٢٠١٣
٥٠٢	کەرکوك و سیاسەتی تەعریب	ئامادەکردنو پێشەکی: یوسف محمد بەرزنجی خەلیل عارف جرجیس	٢٠١٣
٥٠٣	گیروگرفتی دەولّەتی فیدرالّی پێکهاتوو لەدوو یان سێ هەرێم، زنجیرە نامیلکەی ژمارە (٦٠)	د. شۆڕش حسن عمر	٢٠١٣
٥٠٤	الرجلان اللذان الحقا الكرد بالعراق، سلسلة هوشيارى، عدد (٦١)	ديشيد كورون حسن سيدو	٢٠١٣
٥٠٥	الشخصية القومية الكردية، دراسة في القيم والسياسة، سلسلة هوشيارى، عدد (٦٢)	صلاح ابرهيم هورامي	٢٠١٣
٥٠٦	رێبەری کادیر، ز. هۆشیاری، ژ. (٦٣)	بێستون سابوراوایی	٢٠١٣
٥٠٧	إعادة توحيد المانيا (مقدماتها وآثارها)، سلسلة هوشيارى، عدد (٦٤)	إحسان عبدالهادي سلمان	٢٠١٣
٥٠٨	تورکیا: جەنگی ناکام بەرامبەر بەکورد، ز. هۆشیاری، ژ. (٦٥)	رێکەوت اسماعیل ابراهیم	٢٠١٣

٥٠٩	النازيــة، دراســة في الفكــر السياســي الالماني الحديث والمعاصر	م. إحسـان عبـدالهادي سلمان	٢٠١٣